3

أوهام رومانسية

تريد «بريدجيت جونز» حبيب أكثر من أي شيء آخر كطريق إلى الحصول على الأشياء التي تعلم أنها ستوصلها إلى السعادة ـ عائلة، طفل، أولاد ومنزل. في الفيلم عن قصة مذكرات «بريدجيت جونز»، في اللحظات الأولى التي حظيت فيها باهتمام عاطفي من رئيسها «دانييل»، راودتها أحلام الزواج به. وسرعان ما بدأت تجرب وضع اسمها مع اسم عائلة صديقها كما يحدث عند الزواج: وتعتقد لاحقاً أنها حامل بطفله وتشعر بالأمومة وبأنها امرأة حقيقية ـ أوهام خصبة لا يمكن السيطرة عليها ـ وتبدأ بتخيل بشرة الوليد الوردية، مخلوق صغير محبب، وثياب الأطفال الجذابة عند محلات «رالف لورين». غيّر ذلك طريقة فهمها للحياة. فعوضاً عن الرغبة في خنق رئيستها بسبب طلباتها المستمرة، ابتسمت لها: «ابتسمت بسعادة وأنا أفكر أن كل ذلك سيصبح لا أهمية له بعد وقت قصير، بالإضافة إلى أنني أحمل مخلوقاً صغيراً». بعدئذٍ تقول «بريدجيت»: «اكتشفت عالماً كاملاً جديداً من التخيلات عن «دانييل»: دانييل يحمل الطفل في حامل الأطفال، دانييل يأتي مسرعاً إلى البيت ويرتعش من الفرح عند مشاهدتنا نحن الاثنين متوردي اللون في المغطس. ولاحقاً شعوره بالإثارة في الأمسيات التي يقوم فيها بدور الأستاذ والأب». بالرغم من أنه تبين أنها لم تكن حاملاً في الحقيقة، فإن تلك الأفكار كانت تراودها باستمرار: «رأس مملوء بالأوهام حول العيش معه في شقة والجري مع الطفل على الشاطئ مثل دعايات «كالفين كلاين». وكوني سيدة متزوجة معتدة بنفسها عوضاً عن عازبة خجولة». امرأة متزوجة واثقة من نفسها مثل «ماجدا»، التي تعيش في منزل كبير مملوء بثمانية أنواع من المعجنات في مرطبانات وتذهب للتسوق كل يوم». المرأة المتزوجة التي تستمتع بمشاهدة «أطفال ذوي خدود موردة في ثياب النوم ينظرون إلى شجرة عيد الميلاد بابتهاج»[1].

قالت لي كثير من الصديقات أن تلك الأوهام والموضوعات مألوفة لدى عدد كبير من الشابات. في الحقيقة، يبدو أنها ليست غير مألوفة لبعض الأسماء المعروفة. من هي المقصودة في عنوان هذا المقال الذي نُشر في إحدى الصحف؟ «كنت شديدة التوق لطفل ولدي فواتير الأطباء التي تثبت ذلك». هل هي نجمة سينمائية تواقة لطفل؟ لا إنها «جيرمن غرير» إحدى النساء التي كانت المثل الأعلى لحركة حقوق المرأة المعاصرة. كتبت غرير «النساء المخصيات» عام 1971، حيث هاجمت في المقاطع الطويلة الإنجاب كونه «خانق، عدو، ويقيد الآمال الواسعة للنساء المتحررات»[2]. كانت «جيرمن غرير» المثال الأعلى لدعاة حقوق المرأة التي ألهمت أجيال من النساء في الشعور بعدم الرغبة في الأمومة: «عملت «غرير» على قطع الحبل السري لكون الأمومة ضرورة بيولوجية»، كما تقول إحدى داعيات حقوق المرأة الحانقات. وتتابع «كان عدم الرغبة في إنجاب الأولاد أمراً مقبولاً». في الحقيقة، بينما بدا وصف «بيتي فريدان» بأنها أم الحركة النسائية الحديثة أمراً بديهياً، يبدو هذا الوصف غير مترابط منطقياً إذا طُبق على «غرير»: «كانت عنيفة في عدائها للأمومة بذات الدرجة التي كانت تشجب فيها الأبوة والنظام الأبوي. وكانت مثالاً يجسد الاستقلالية، ومحبذة للعلاقات الجنسية المتعددة، ومعادية بشكل عميق لأي سلطة. بالإضافة إلى كونها امرأة جذابة ومثقفة». تستطرد عضوة حركة حقوق المرأة المحبطة قائلة «لقد وضعت كثير من النساء ثقتهن بها وتجنبن إنجاب الأطفال إلى حين تحقيق أهدافهن الأخرى التي كانت عادة أهداف في العمل». والآن تشعر كل تلك النساء أنه قد تمت خيانتهن بتوق «غرير» إلى طفل: «إن تفجعها على تأجيل الأمومة ثم الحرمان منها هو عمل تخريبي ضد كل النساء (والرجال) اللواتي آمنّ بأفكارها التي كتبتها قبل ثلاثة عقود»[3].

والآن تتفجع «غرير» على أطفالها الذين لم يولدوا وتعترف بحزن «لا تزال لدي أحلام في أن أحمل، وأنتظر بثقة وفرح شيئاً لن يحدث أبداً»[4].

لإكمال ذلك الثلاثي: من هو الشخص الذي قال الوصف الشهير للزواج بأنه مؤسسة لاستعباد النساء تحت سيطرة النظام الأبوي، مؤسسة حيث تصبح المرأة شبه إنسان؟ من هو الشخص الذي يقال بأنه صاغ الجملة الشهيرة «امرأة بدون رجل مثل سمكة بدون دراجة»؟ حسناً، لقد وجدت السمكة دراجتها. «غلوريا ستاينم» إحدى داعيات حقوق المرأة البارزات، قد تزوجت أخيراً في عمر السادسة والستين: «بالرغم من أنني عملت لسنين عديدة من أجل جعل الزواج متعادلاً، تقول «غلوريا» في تصريحها الصحفي المقتضب الذي صدر عن طريق جمعية حقوق حرية الإجهاض «لم أتوقع أن أقوم بهذا أبداً، إنني متفاجئة وسعيدة وسأكتب عن هذا يوماً ما، ولكني الآن آمل أن يبرهن هذا على ما كان دعاة حقوق المرأة يقولونه دائماً ـ إن حقوق المرأة هي القدرة على اختيار ما هو مناسب لكل مرحلة من الحياة»[5].

دعونا نتوقف قليلاً هنا، هل هذا ما آمنت النساء الشابات اللواتي قرأن كتابات «غلوريا ستاينم» عن الجنس (مذكر/مؤنث) أو كتاباتها التربوية، وهل ما زلن يؤمن به؟ إحدى دعاة حقوق المرأة الشابات ليست واثقة من ذلك. إذ عندما سمعت نبأ زواج «غلوريا» كتبت قائلة: «لقد خاب أملي، أنا في العشرينات من العمر، عازبة ذات مهنة وأهتم بالسفر وبمهنتي أكثر من اهتمامي بإيجاد زوج». لقد علمت بزواج «غلوريا» بالبريد الإلكتروني من إحدى صديقاتها العازبات مرفقة بالتعليق الآتي: «لا يزال لدينا أمل!» أمل؟ هل يظن أحد أن «غلوريا» كانت تأمل أن تتزوج؟ هل تظن صديقتي أنني أمضي الوقت وأنا أحلم بالزواج؟ تشير، وهي تحاول التغلب على زورانيتها الشبيهة بزورانية «بريدجيت جونز»، إلى شعورها بعدم الارتياح عندما تنكرت بطلاتها لكل شيء كن ينادين به.

في عالم حيث هناك تساؤلات عديدة، من الجيد وجود مثال أعلى، امرأة مثل «ستاينم» لا تعيش حياتها حسب شروطها فقط بل امرأة لم تقل أبداً «أوافق» إلى أي شخص غير نفسها. لقد كنت دائماً أنظر إلى «غلوريا» كمثل أعلى. امرأة خارقة الجمال، عازبة وذكية بالإضافة إلى كونها من دعاة حقوق المرأة.

والآن لم يعد لديها أحد ليرشدها في حياتها كعازبة. كم هي فتاة تعيسة؟ من الأفضل أن تعمل على أن تصبح هي المثال الأعلى «أن نعيش حياتنا وفقاً لشروطنا... لأنه سيظهر قريباً جيل جديد من النساء يتطلع إلي وإلى أقراني... وليس إلى «بريدجيت جونز» لإرشادهم في الحياة»[6].

مدارس في تعليم الاستقلالية

«بريدجيت جونز»، «جيرمين غرير»، «غلوريا ستاينم» ... مُتنَ بغيظكن: هنالك الكثير من دعاة حقوق المرأة الذين لا يوافقون على كل ذلك. إن رسالتهم تناسب بشكل واضح المناخ التربوي اليوم. إن الأفكار الأولية لـ «غرير، وستاينم، وفريدان»، وهي أن الاستقلالية والعمل هما أكثر أهمية للشابات، وأن الزواج والأطفال والعائلة أعمال منزلية شاقة تنسجم مع المناهج التي يُركز عليها في مدارس الفتيات اليوم. في كل مظاهرها ـ من حرمان الفتيات من اختيار مواضيع الدراسة والتعليم التربوي المهني الذي يمنح الفتيات الاستقلالية أكثر من أي شيء آخر، والتربية الجنسية التي تنكر وجود أي فروق بين الفتيان والفتيات بغض النظر عن النواحي الجسدية، والرعاية الخاصة التي تشدد على حاجة الفتيات إلى الانطلاق في الحياة ولأن يصبحن مستقلات ومتوجهات إلى الناحية المهنية ـ كل هذه المظاهر لا تأخذ مشاكل «بريدجيت جونز» بعين الاعتبار.

لقد أصبحت هذه الأفكار من المسلمات في مدارسنا اليوم. لقد تم الانتصار في المعركة بفضل دعاة حقوق المرأة الداعيين إلى المساواة الكاملة، كما بيّنا في الفصل السابق. حتى أن التساؤل عما إذا كان يجب أن يكون تعليم وتأهيل الفتية والفتيات في المدارس بشكل متماثل يبدو محرجاً تماماً... لنتحدث بهدوء الآن: أنا لا أقول أنه لا يجب تأهيل الفتية والفتيات في المدارس بشكل متماثل، ينبغي أن نعلم أن هذا ما يجب على المدارس أن تقوم به قانونياً. إن هذا التأكيد موضح في الولايات المتحدة، في الاحتفالات بمرور 25 عاماً على تشريع ـ IX وهو التشريع الذي يفرض التحييد الجنسي (ذكر/أنثى) في كل البرامج التربوية التي تتلقى مساعدة مالية فيدرالية ـ وهذا ما يشمل في الواقع غالبية البرامج التعليمية[7].

من الواضح جداً في كل قرارات هذا التشريع أن ما يخلق فتيات ونساء ناجحات هو ذاته الذي يخلق شبان ورجال ناجحين. وقد عبّر عن ذلك وزير التربية الأمريكي بقوله:

> لقد وضعت رائدات الفضاء مثل «سالي رايدو» و «شانون لوسيد» علامتهن البارزة في الفضاء، بذات الوقت الذي قادت به «ميا هام» و «ميشيل آكرز» الفريق الوطني لكرة القدم إلى مجد الأولمبياد وبطولة العالم. لقد دخلت النساء مجال العمل في المهن الطبية والقانونية بأعداد قياسية، ورأينا تضاعف مشاركة النساء في الألعاب الرياضية التي تجري الآن.

إن مغامرات الفضاء، وكرة القدم، والألعاب الرياضية هي مجالات كانت «بريدجيت جونز» ترحب بشدة أن تكون ناجحة بها. حسناً، تلك هي المجالات التي كانت هي وأخواتها ذاهلات عنها عند بلوغهن سن 30 عاماً، ويبحثن عن الهداية. أليس هذا صحيحاً؟

على كل حال كان وزير التربية غافلاً عن حالتهن: «هناك اليوم في أمريكا شابات يدرسن بجد ويحصدن النجاح في مجال الألعاب الرياضية، وربما يفكرن الآن بشكل جدي بدخول معترك المهن الأخرى مثل العلوم، وعالم الأعمال، وألعاب كرة السلة، وحتى إمكانية أن يصبحن رئيسات جمهورية للولايات المتحدة». نساء كهذه «باستطاعتهن النجاح وباستطاعتهن أن يصبحن جزأً من الحلم الأمريكي». لنكن صريحين، أن الحلم الأمريكي يتعلق بإنجازات النساء التي تضاهي إنجازات الرجال في العلوم والأعمال والرياضة والسياسة. إن العائلة والحياة المنزلية أماكن غير مناسبة، أماكن يجب على النساء الهروب منها كي يحققن النجاح.

كيف تستطيع النساء الهروب؟ كما أدركت «بيتي فريدان» في كتابها «الغموض الأنثوي»، تستطيع النساء عن طريق التعليم «الهروب من التقييد والتعصب والوصول إلى أقصى استطاعتهن»[8]. إن قيود التمييز هي التي تبقي النساء في دائرة الأعمال المنزلية والأعمال ذات الدوام الجزئي. وهذا هو سبب أهمية

تشريع IX، إذ أنه يحرر النساء من استبداد نظم التعليم في السنوات الماضية ـ استبداد أدى إلى مهازل مثل توجيه الفتيات إلى «صفوف تعليمية يتعلمن فيها الطبخ والخياطة». والى رفض إعطائهن الفرصة للدخول إلى المخابر الحرفية والصناعية والرسم المعماري[9]. المهازل التي جعلت قاضياً من كونكتيكت عام 1971 يقول «إن المنافسات الرياضية تنمي شخصية شبابنا، ولا نريد هذه الصفات في شاباتنا»[10]. لكن بالطبع هناك حاجة للتنافسية والعدوانية المكبوحة إذا أرادت الفتيات المطالبة بحصتهن المستحقة من الحلم الأمريكي.

أما عن الخمسة وعشرين عاماً بعد تشريع IX: لقد تم إنجاز الكثير ولكن يبقى الكثير لإنجازه. تحتاج النساء إلى التشجيع لدخول سوق العمل حيث تكون الأجور أعلى في مجال الرياضيات والعلوم والهندسة والكمبيوتر. وهي حقول تمثل النساء فيها أقلية مزرية: «بدون وجود عدل أكثر في هذه المجالات على مختلف المستويات، ستبقى النساء في المراكز الدنيا وسيبقى معدل الأجور متدنياً في عصر المعلوماتية». هناك إحصائية محزنة أخرى: لا يزال هناك تقريباً 24000 فريق رياضي للفتيان أكثر من الفرق الرياضية للفتيات. وفي الجامعات تحصل الفتيات على ثلث المنح الدراسية الرياضية، أما النفقات الكاملة لإدارة البرامج الرياضية للفتيات في الجامعات فهي تشكل أقل من ربع المجموع العام للنفقات الرياضية[11]. لن نشعر بالراحة حتى تحب الفتيات الرياضة بقدر ما يحبها الفتية، عندئذ فقط تشعر النساء بالاكتفاء وبأنهن حقاً متحررات.

لخص الرئيس «كلينتون» المغامرة بأكملها كما يلي: إذ قال إن تشريع IX قد أحدث فرقاً في حياة الملايين من الشابات والنساء. إننا نعرف الثقة التي أحدثها والآمال التي ساعد في وضعها، والإنجازات التي ساعد في خلقها». هذه الآمال التي تقود الفتيات والنساء إلى الاعتماد على العمل للحصول على الاكتفاء الذاتي. يقول «كلينتون» ليس لدينا أي فرد يمكن الاستغناء عنه إذا أردنا الحفاظ على مصالح شعبنا وعلى تنافسية أمتنا». ويصرح قائلاً: «إن الفرص المهدورة

تضعفنا كلنا، وبينما نتهيأ للقرن الواحد والعشرين سيكون من الجنون أن لا نستفيد من كل جزء من الطاقة والموهبة والإبداع التي يملكها كل أمريكي». ويكرر الأفكار التي أعلنها وزير التربية ويستطرد قائلاً: «يجب أن تحصل كل فتاة تعيش في أمريكا اليوم على الفرصة في أن تكون رائدة فضاء أو رياضية أولمبية، أو وزيرة أو قاضية في القضاء العالي، أو عالمة تفوز بجائزة نوبل أو رئيسة للولايات المتحدة. لقد ساعد تشريع IX الفتيات لمدة 25 عاماً على إدراك أحلامهن وعلى تحقيقها». ويؤكد لنا أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تؤدي إلى «أن تحصل كل شابة وامرأة على الفرص التي تستحقها لتحقيق أقصى ما يمكن في حياتها». «يجب أن تعطى كل شابة أو امرأة الفرصة للاستفادة من إمكانياتها التي أعطاها الله لها». أي الإمكانيات التي وهبها الله لها كي تصبح رائدة فضاء أو لاعبة كرة قدم[12]. لا يوجد هناك أي ذكر لأي مواهب مختلفة محتملة أخرى أعطاها الله للفتيات أو حتى مواهب مختلفة عن مواهب الفتيان.

هنا أيضاً، كما في مجالات أخرى، قادت أمريكا العالم في هذا المجال. إذ أن تحاملات «بيتي فريدان» و «غلوريا ستاينم» السابقة موجودة ومعبر عنها كلها بوضوح في تفاصيل تشريعية لضمان الحياد الجنسي في التعليم المدرسي ـ الحياد الجنسي (ذكر/أنثى) الذي يؤكد مرة تلو الأخرى على أن الطريقة الوحيدة للنجاح وبلوغ الاكتفاء لدى النساء هي من خلال الإنجازات في عالم الأعمال والعلوم والرياضة والسياسة. ولا تولى العائلة أي اهتمام هنا. وكما يُذَّكر رئيس الولايات المتحدة المستمعين بجدية: «إن تشريع IX ليس خياراً، إنه القانون ويجب على القانون أن يطبق»[13].

كل هذا مشرع في القانون أيضاً في بريطانية. ابتداءً من مرسوم التمييز الجنسي في عام 1975 الذي صدر بعد تشريع IX بثلاث سنوات حتى وضعه بشكل نهائي في قانون الإصلاح التربوي في عام 1988 من خلال المناهج التربوية الوطنية ونظم التقويم ذات الميول النسوية. عند قراءة خطابات السياسيين أن كل

تلك الآراء قد عُبر عنها بشكل أقل ظهوراً ولكن أكثر مخاتلة، وتوجد الآراء نفسها في دقائق التشريع: على سبيل المثال فإن الوثائق المعدلة للمنهاج الوطني 2000 توضح بأن الفتية والفتيات متماثلين ويجب التعامل معهم على هذا الأساس. ويجب أن تكون الأهداف التربوية متماثلة أيضاً. إن الهدف الأول للمناهج هو «توفير الفرص لكل الطلاب للتعلم والإنجاز». ويوضح أن المناهج «يجب أن تعطي كل الطلاب الفرص ليصبحوا خلاقين مبدعين، وقادرين على القيادة كي يكونوا مهيئين للحياة في المستقبل كمواطنين وعاملين». إن الأهداف الأربعة الرئيسية للمنهاج الوطني هي التأكد من أن كل الطلاب، بصرف النظر عن الجنس (ذكر/أنثى) يكتسبون المعرفة والفهم والمهارات الضرورية لتحقيق الذات وأن يصبحوا «مواطنين فعالين ومسئولين».

إنه أمر دقيق يمكن إغفاله بسهولة: ما هو هام بشكل متساوي لكل الطلاب هو أنه يجب إعدادهم لدورهم في ميدان العمل العام والسياسة. وهنا أُغفلت العائلة والمنزل. ما اكتشفته «بريدجيت جونز» من أولوياتها عندما أصبحت في الثلاثين من عمرها لم يكن جزءاً مما جرى تهيئتها له حسب الهدف الأساسي الأول في المناهج.

في الواقع، إن المكان الوحيد الذي ذُكر فيه المنزل في وثائق المناهج ـ حيث تذكر الخطوط العريضة ما يجب على المدارس أن تقدمه للطلبة ـ هو ما ذُكر في السطور الأخيرة من الهدف الثاني، الذي يقول بوضوح أن على المناهج أن «تعزز تطور الطلاب الروحي، والأخلاقي، والاجتماعي والثقافي». وأن تهيئهم للفرص والمسؤوليات والتجارب في الحياة. بشكل عابر، لوحظ أن هذا الهدف يعني أن على المناهج أن تساعد الطلاب على «تشكيل والحفاظ على العلاقات القيمة والمرضية ... في المنزل والمدرسة والعمل والمجتمع». ولكن حتى هذا الذكر المقتصر في هذا المجال، حيث يبدو أن كثير من النساء يردن أن يجعلن تحقيق الذات من أولوياتهن، يأتي في سياق القول على أن المدرسة يجب أن تقدم فرص متساوية وتجعل الطلاب قادرين على تحدي التمييز والتنميط[14]، وبالطبع عدم تقبل أي أفكار خاطئة عن الحياة العائلية.

إن الطريقة التي جُسدت بها هذه المقاربة في أعمال هيئة الفرص المتساوية أقل وضوحاً. فعند قراءة تقاريرها وأهدافها نرى بوضوح أن مقاربتها تعتمد أساساً على وضع الفتيات في مجالات أعمال ذكورية، وكلما كان الأجر أكبر كان ذلك أفضل. وتعتقد أيضاً أن ما هو هام للفتيات هو المجال العام في العمل والسياسة. إن وجود النساء هناك هو بمثابة الوقود لمساعدة الاقتصاد، وهذا واضح في مقولات مثل: «بما أن هناك نقصاً في المهارات في النواحي العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية في الوقت الحاضر، من الهام أن نشجع الفتية والفتيات على دخول تلك المجالات في الوظائف المستقبلية». لكن هل نقص المهارات في الوقت الحاضر يُقلق «بريدجيت جونز» بشكل خاص؟ دعنا من ذلك، لا بد أن تعليمها المدرسي كان عن المنافسة في العالم الذكوري فوق كل شيء آخر. وعندما تعالج هيئة الفرص المتساوية (EOC) بعض تلك القضايا التي يمكن أن تستوقفها بأنها أكثر أهمية، مثل الاختلافات في التطور الشخصي بين الفتية والفتيات، يكون الحل من جديد هو الابتعاد عن التنميط الجنسي التقليدي: «مرة أخرى، يمكن معالجة تلك الاختلافات بتغيير المواقف المتأصلة من الأدوار الجنسية (ذكر/أنثى). إن تغيير المواقف التقليدية تجاه مجالات المناهج «المذكرة» و «المؤنثة» وجعلها جذابة لكلا الجنسين، هو الشيء الوحيد الذي سيحقق المساواة الحقيقية»[15]. إن زيادة الحياد الجنسي وجعل الفتيان والفتيات متماثلين، وإزالة الاختلافات بينهم هي الطريق الوحيدة التي تؤدي بالفتيات إلى تحقيق ذاتهن.

دعاة حقوق المرأة يؤيدون الحكومة

إن بيانات الحكومة واضحة: تريد أكثر عدد ممكن من النساء في القوى العاملة، وفي أعلى المستويات الممكنة. تريد أكبر عدد ممكن من النساء اللواتي يسعين بحماس إلى أعمال ذات مرتبة عالية، والى العلم والرياضة حتى تصبح بلادهن الأعظم في العالم. شيء رائع! (هذا ما يمكن أن تقوله «بريدجيت جونز»). ربما يمكن أن يُغفر لهم ذلك الهاجس الضيق الأفق / المحدود مع وجود عدد قليل من النساء في مراكز

عالية في الحكومة؟ هل من الممكن أن نغفر لهم انجرافهم مع تلك الهواجس الذكورية؟ ربما، بالفعل، هنالك كتابات نسائية تستطيع أن تساعد على كبح جماح حماسهم الخاطئ وتجعلهم يدركون أنه ليست المهن الذكورية فقط هي المهن القيمة، وتذكرهم أن هناك أشياء أخرى هامة في الحياة؟ إذا كانت القارئة تأمل بذلك فلن تجد أي عزاء في كتابات المربين النسائيين.

ما الذي يمكن أن يجعل دعاة حقوق المرأة يتوافقون مع ما تريده الحكومة من التربية؟ من الضروري جداً من أجل إثبات حجة هذا الكتاب اكتشاف ماهية هذه العلاقة: ما سنقوم به هو التركيز بشكل مفصل على الآراء في كتاب «ردم الهوة بين الجنسين» لأن هذا الكتاب الذي ألفه دعاة حقوق المرأة الأكاديميون الهامون يقدم ملخصاً منطقياً شاملاً وممثلاً للآراء الرئيسية التي يقدمها دعاة المساواة النسائية حول السياسة التربوية. نستطيع أن نجد في هذا الكتاب الأفكار الأساسية التي تساند المطالب المستمرة للقضاء على التنميط الجنسي (ذكر/أنثى)، وجعل النساء متساويات أكثر مع الرجال. في هذا الكتاب هناك آراء هامة تساند الإصلاحات إلى حد يجعل التمييز الجنسي في المدارس غير قانوني. أظن أن مراجعة تلك الآراء يحرر معتقدات هذا التيار المؤثر للحركة النسائية.

أولاً، في كتاب «ردم الهوة بين الجنسين» نجد الكثير من المديح للوضع الحالي للشابات. يعترف المؤلفون بخطئهم في خشيتهم في الماضي من أن الأمور ستصبح أسوأ للفتيات والنساء في عهد رئيسة الوزراء «ثاتشر». لكنهم كانوا على خطأ خاصة حول شكوكهم من أن الحياة سوف تصبح أفضل للشابات العاملات بسبب المساواة التربوية بين الجنسين التي أحدثت فروقات كثيرة في التعليم المدرسي والمناهج. عوضاً عن ذلك، استطاعت المدرسات والمربيات المناديات بالمساواة مساعدة الفتيات على المشاركة بالفكرة العامة للمرأة وجعلها قابلة للنقاش. تحررت الفتيات ضمن ملاذ المدرسة الآمن من النموذج القديم للأنوثة وتسلط العائلة. وكل هذا يستحق الإطراء كما يقولون.

في السبعينات والثمانينات قامت كثير من الدراسات بإجراء مقابلات مع فتيات وشابات من الطبقة العاملة حول مفاهيمهن ومواقفهن. ولكن إذا كانت الأمور سيئة في ذلك الحين فإن الشابات لم يبدين ذلك، وهذا ما خيب أمل الباحثين. «كانت الفتيات مستغرقات بجنون في العلاقات العاطفية». لم يكن غير سعيدات بالإمكانات المتاحة أمامهن. كنَّ قد كونّ مستقبلاً خيالياً. وعوضاً عن قلقهن من الأعمال المنزلية الشاقة التي اعتبرها مؤلفوا كتاب «ردم الهوة بين الجنسين» وصف للحياة المنزلية، انغمسن «في المفاهيم عن الرومانسية والفتنة كأسلوب للتعبير عن أنوثتهن الجنسية». وعوضاً عن كونهن سلبيات تجاه «ما يعتبرن أنه قدرهن» (ليس رغبتهن أو آمالهن) «وتجاه الزواج والأمومة، احتفلت الفتيات به». ولكن وفقاً لمؤلفي «ردم الهوة بين الجنسين» أكد ذلك الاحتفال ضميرهن الكاذب وضلالهن.

لقد استخدم «الزواج لإضافة القيمة وكفرصة للتعبير عن شخصيتهن وجنسيتهن». ولكن هذا، كما يقول المؤلفون، لا يمكن أن يكون التقييم الحقيقي لما تعنيه الحقيقة لهن. لقد احتفلت الشابات بعبادة الأنوثة، وهذا ما عدته «بيتي فريدان»، كما رأينا في الفصل الأول «الغموض الأنثوي». لقد صادقت الشابات، بدون استثناء تقريباً، على الدور التقليدي للأنثى والأنوثة. في ذلك الوقت كانت الأنوثة بالنسبة إلى الشابات مرتبطة أكثر بالأصدقاء والزواج والأمومة أكثر مما كانت مرتبطة بأجور العمل.

يحوي كتاب «ردم الهوة بين الجنسين» تفسير اقتصادي بسيط لسوء الفهم لدى تلك الفتيات العنيدات. كان على الفتيات أن يعشن أحلامهن الرومانسية لأنهن كن بحاجة إلى الرجال لإعالتهن اقتصادياً: «بدا أن رعاية الأطفال من مسؤولية المرأة وكان ذلك من حقائق الحياة التي لا يمكن تجنبها أو تغييرها. بدون الموارد المالية لم يكن للشابات خيار آخر غير وضع خطة للخروج من المأزق، وذلك بتأمين دعم منزلي وزوجي لسنوات الحمل. خاصة، كما يقول المؤلفون، في عدم وجود منظمات حكومية تتولى الإنفاق على الأطفال. وكان لهذا أثر مضاعف على مخططات الشابات الطويلة الأمد.

على كل حال، هنا نحصل على مديح من المؤلفين. بدأ موقف الفتيات الشابات العاملات يتغير في أواخر الثمانينات والتسعينات. لم تكن الكثيرات مستعدات لتحمل كدح العمل المنزلي والظلم. أصبحت كثير من النساء مستقلات وتحررن من الحياة المنزلية كما تحررن من أوهامهن الرومانسية عن الزواج والحياة العائلية. بالطبع، يسلم الكتاب أنه من الخطأ تقييم ذلك، خاصة، كما لاحظنا سابقاً، أنهم يلاحظون «التناقض الغريب» لدى الشابات اللواتي لسن مدركات للتمييز الجنسي ولعدم وجود قوة مقايضة أنثوية، واللواتي ما زلن يخترن بعناد «العمل المنزلي» عوضاً عن العمل في عالم المرأة الخارجي. ومرة أخرى، لدى المؤلفين تفسير آخر لهذا أيضاً. إن ندرة أماكن التدريب هي التي «نمّت الشعور المحافظ لدى الفتيات العاملات» وهم يأملون كما نفهم أن الأحوال ستصبح أفضل فيما يتعلق بذلك، لأن المؤلفين يشيدون بحقيقة تحرر النساء من عبادة الأنوثة والحياة المنزلية والحياة العائلية التقليدية..... كل هذا لا يمكن إرجاعه للوراء[16].

لنقل ذلك مرة أخرى: إن دعاة حقوق المرأة هؤلاء يكتبون وفقاً لتقاليد «فريدان» الأولية ووفقاً لـ «غرير ستاينم». وهم يؤمنون الدعم لسياسة الدولة الحالية في التربية والتعليم. إن المبادئ التي يكتبون وفقها تتوافق مع المناخ التربوي في الوقت الحاضر. سيجد بعض القراء ذلك إيجابياً بدون شك، وسيتفقون في الرأي حول تقويم المؤلفات من دعاة حقوق المرأة وسيشعرون بالسرور كونهن يملكن التأثير والقوة. أما بالنسبة لي، أرى أن هنالك ثلاثة مواضيع تنطلق من مناقشاتهن. توفر تلك المسائل الثلاث البنية والمحتوى لبقية هذا الفصل والفصل التالي، ثلاث معضلات تحتاج إلى سبر عميق.

أولاً، هناك موضوع «القليل من شأن الحياة المنزلية». هل حقيقة أن الحياة المنزلية لا قيمة لها كما يصفها دعاة حقوق المرأة، وأنها غير مجزية؟ وهل كانت فتيات الأمس ذوات المفاهيم الرومانسية اللواتي وددن أن تكون الحياة المنزلية من أولوياتهن في الحياة على ضلال، كما يصفهم دعاة حقوق المرأة؟ تركز بقية الفصل على هذا الموضوع.

ثانياً، هناك السؤال المعاكس الذي يخص عالم الرجال، والمتعلق بالعمل والحياة العامة. هل ذلك ثمين كما يقول دعاة حقوق المرأة؟ هل يقدم القدر الكافي من تحقيق الذات إلى الأشخاص الذين يعيشون ضمن دائرته وهل يستطيع تقديم ذلك إلى الأكثرية من النساء؟ أو هل هناك رومانسية غامضة في ذلك العالم تسير جنباً إلى جنب مع احتقار المنزل والعائلة؟

ثالثاً، هنالك الشكوك الملحة، وهي أن دعاة حقوق المرأة في وصفهم ومديحهم للنساء المستقلات قد فاتتهم بعض الأشياء حول التبادلية، وترابط سعادة الرجال والنساء. إذا تم تعليم الفتيات أن عليهن أن يكن مستقلات في علاقاتهن، ألن يؤدي هذا إلى التأثير على الطرق التي يتصرف بها الصبية تجاههن؟ أ لن يكون لهذا آثار محتملة على ظاهرة «بريدجيت جونز»؟ يجري التركيز على المشكلتين الثانية والثالثة في الفصل الثاني.

التقليل من شأن الحياة المنزلية

كما رفضت «بيتي فريدان» الطريقة التي تتخيل فيها النساء الحياة المنزلية وكافحت لتشويهها، كذلك ترفض المربيات من دعاة حقوق المرأة ـ كما رأينا ـ أن تتخيل الفتيات العاملات خاصة ـ إمكانية كونهن على صواب في تخيل أقدارهن على كافة المستويات. لا ريب في أن دعاة حقوق المرأة يعرفن أكثر. إن الفتيات كن وما زلن يعشن في ذلك التناقض الغريب ويخدعن أنفسهن. إن جعلهن للحياة معنى من خلال الرومانسية والزواج والعائلة هو شعور كاذب. لا شيء من ذلك يمكن أن يخفف من وطأة الكدح في المنزل، وتربية الأطفال والعناية بالمنزل. لا يمكن أن يوفر الزواج والعائلة الاعتبار، والأمن والحب. إن الحياة العائلية مأزق ـ هذا ما يقوله دعاة حقوق المرأة ـ على الغبيات أن يتحملنه. إن الحمل هو عبء لا يمكن تجنبه في الحياة ولسي مصدر سعادة أو مهنة. وفقاً لتلك الداعيات فإن العناية بالأطفال عمل منزلي آخر مثل مسح الأرضية[17].

في الأيام السيئة الماضية كان على الفتيات الاعتماد على الرجل لتحمل قدرهن. كم هو أفضل لو كان هذا الاعتماد يمكن أن تقوم به الدولة وذلك عن طريق منظمات حكومية تتولى الإنفاق على الأطفال. كم هو الحال أفضل للفتيات في الأيام الرائعة في الوقت الحاضر حيث تستطيع الفتيات أن يعبرن عن أنوثتهن من خلال أجورهن وليس من خلال الحب، والزواج والأطفال. كم هو الحال أفضل الآن حيث تستطيع الفتيات الانشغال في تخطيط طويل الأمد لأعمالهن بدلاً من التخطيط لعائلاتهن.

في الحقيقة، أصبحت هذه العبارات مألوفة على نحو أكبر من أن تكرر. حتى أنها انتشرت في وعينا. ولكنها تستحق أن نحدد من أين جاءت ـ لأن في مصادرها توجد بصيرة ساحرة. إن الحاجة لتحرير المرأة من الكدح المنزلي ووضعها في مكانها الصحيح في العمل، يمكن اقتفاء آثاره في التقريع المطول ضد ربات البيوت في كتاب «سيمون دي بوفوار» «الجنس الآخر» (1949) [18] والذي ترجمت أفكاره إلى القراء الأمريكيين، ثم إلى القراء الناطقين باللغة الإنكليزية (اللغة الأنجلو ـ سكسونية) من قبل «بيني فريدان» في كتابها «الأنوثة الغامضة» عام 1963.

إن مصدري الأولي لاكتشاف كل هذا كان هجوم «كارولين غراغليا» العنيف على دعاة حقوق المرأة في كتابها «الهدوء العائلي». تقول «كارولينا» أن «سيمون دي بوفوار» بدأت تبرهن أنه ليس لدى النساء غريزة الأمومة وأنهن يجدن أن أطفالهن مرهقين. وتستطرد قائلة أن الأم وربة المنزلية تكاد تكون دائماً امرأة غير راضية، وأنها باردة أو غير مكتفية جنسياً. أما في المجتمع فهي تشعر أنها أقل شأناً من الرجل. وأن كونها ربة منزل يجعلها غير راضية بشكل مضاعف لأنها «غير منتجة». إن ربة المنزل هي «طفيلية ثانوية تابعة»، والزواج يحول المرأة إلى «كائن متسول»، «وعلقة طفيلية»، «ومخلوقة سامة». وأنه من صالح الرجل والمرأة أن يتغير الوضع وذلك بتحريم الزواج بكونه مهنة للمرأة. لا تستطيع المرأة في المنزل»: أن تثبت وجودها «لأنها تفتقد إلى الوسائل الفردية لإثبات الذات كفرد. نتيجة لذلك لا تلقى شخصيتها الفردية التقدير[19].

أما بالنسبة إلى «غلوريا» فإن كل الأفكار التي قدمها دعاة حقوق المرأة المعاصرة موجودة في كتابها «الجنس الآخر». لقد أظهرت «بيتي فريدان» الأفكار نفسها بطرق أكثر انفتاحاً للقراء الأمريكيين ومن ثم الإنكليز. وفقاً لـ «غلوريا» كان كتاب «فريدان» الأول «الأنوثة الغامضة» تعبير متقد لكراهية غامرة لحياة «ربة منزل تعيش في الضواحي»[20]. إن اتهام «فريدان» الأكثر تأثيراً هو أن كون المرأة ربة منزل يقود إلى استفحال تجريدها من صفاتها الإنسانية في معسكر اعتقال مريح: «إن النساء الأمريكيات بالطبع لسن مهيآت لإبادة جماعية ولكنهن يعانين من موت بطيء للعقل والروح. إن العمل الذي يقمن به يجعلهن «تابعات سلبيات كالأطفال». إنه «لا يتطلب مقدرة البالغين. إنه عمل رتيب غير مكافئ وبلا نهاية». هناك شيء خطير في حالة كون المرأة ربة منزل. لأن النساء اللواتي يرغبن أن يصبحن ربات بيوت في خطر كملايين النساء اللواتي مشين إلى حتفهن في معسكرات الاعتقال، وملايين أخريات رفضن تصديق وجود معسكرات الاعتقال. في معسكرات الاعتقال النازية أصبح السجناء بشكل حرفي «جثث تمشي» متنازلين عن هويتهم: «الغريب أن الظروف التي قضت على الهوية الإنسانية لعدد كبير من السجناء لم تكن التعذيب والوحشية، ولكنها ظروف شبيهة بتلك التي تقضي على هوية ربات المنزل الأمريكيات»[21].

بالطبع، تقول «غلوريا» إن الطريقة التي استخدمت فيها «فريدان» وقبلها «دو بوفوار» كلمة «طفيلية» في وصف ربة المنزل لم يُسبق استخدامها على الغالب في المجتمعات الأمريكية والإنجليزية، وقد جرى استخدامها فقط في أعمال «هتلر»: وفي كل من مؤلف: هتلر « Mein Kampf» ومؤلف «الغموض الأنثوي» لـ فريدان تم استخدام لغة منمقة كي تعزل وتشوه المجموعة التي تدينها تلك الأعمال. وقد نجح العملان، بالرغم من أن مؤلف واحد فقط استمر في تلقي الهتاف. وتستطرد قائلة: «نستطيع بسهولة استبدال وصف «هتلر لليهود» في المجتمع الألماني بوصف «فريدان» و «دو بوفوار» لربات المنازل لان أسلوب التعبير متشابه جداً[22].

ضمن تلك الأعراف تشعر النساء من دعاة حقوق المرأة، اللواتي ساعدن على خلق المناخ التربوي الحالي، بفخر. لأنهن كما قلن لنا، تحررن من الكدح المنزلي. لقد كان ما حررهن هو توسيع النظام التربوي الذي ساعدهن في النهوض والابتعاد عن قيود الحياة المنزلية[23]. وهن سعيدات أن كل النساء العاملات والمحترفات يقمن بذلك أيضاً.

ولكن هل كل ذلك سيء إلى تلك الدرجة؟ إذا كان الأمر كذلك، عندئذ يكون صحيحاً ومناسباً أن تحرر النساء منه. لماذا إذاً لا يزال عدد كبير من النساء غير سعيدات وغير مكتفيات ومن الواضح أنهن يتشوقن كي يضعن الحياة المنزلية في أولوياتهن، رغم أنهن تحررن من تلك الحاجة؟ ربما نستطيع إيجاد بعض الأجوبة لتلك التساؤلات إذا عدنا إلى السيدتين اللتين بدأتا المشروع بأكمله أولاً. أقول لطلبتي دائماً أن لا يعتمدوا على مصادر ثانوية للحصول على نصوص أساسية حتى لا يقعوا في دوامة لعبة «الهمسات الصينية الأكاديمية» حيث تُشوه المناقشات وتُقدم بشكل خاطئ، ويحمل الناتج شبهاً قليلاً لما كُتب في النص الأصلي[24]. وأنا أحاول أن أقوم بما أدعو إليه، لذلك بدأت بمراجعة أعمال «فريدان» و «دو بوفوار» عوضاً عن الاعتماد على تأويل الناقدة «كارولين غراغليا» لتلك الكتابات. كان علي أن استنتج أن كل ذلك لم يكن كما بدا. كتبت كل مؤلفة بالطبع ما الذي أُقتبس عن آرائها ولكن كان هناك الكثير الكثير لنقوله.

اعترافات «بيتي فريدان»

تكتب المربيات بشكل يتوافق مع آراء «بيتي فريدان» حول تحقير الحياة المنزلية، ومع ذلك، من المضحك أن آرائهن التي تتماشى مع تلك في «الغموض الأنثوي» لم تعد «فريدان» تلتزم بها. كما رأينا في الفصل الأول، لقد غيرت آراءها جذرياً. فقد كانت تسمع قصصاً عن تعاسة النساء، عن نماذج لـ «بريدجيت جونز» في أمريكا. وكان الكل يتساءل عما إذا كانت الثورة النسائية

تستحق العناء. هل كان استبدال مهمة الأمومة والحياة العائلية بمهنة غير مؤمّنة، بالإضافة إلى الوحدة يستحق العناء؟ ولكن لا يبدو أن تغير آراء «بيتي» قد ترك أثراً على المربين من دعاة حقوق المرأة الذين يديرون سير العمل.

تدرك «فريدان» الآن أن مقارنة ربة المنزل بالضحية في معسكرات الاعتقال كان متطرفاً جداً. لم تكن المساواة أبداً تعني لها «تحطيم الأسرة وأفكار الزواج والأمومة، أو حرب جنسية حقودة ضد الرجال». كان ذلك فهم خاطئ للمشروع بأكمله. بالطبع، هي تعترف بصراحة، أن الأمر قد خرج من يدها جزئياً بسبب الخوف من بغض العضوات الأكثر صراحة إذ تقول «لقد كنا مرعوبات من التزامات الحركة النسائية، وخائفات من سطوة الجماعة النسوية أكثر من خوفنا من العدو(وهو الرجل)». لكنها أصبحت الآن أكثر صلابة وتقول «إن المساواة التي حاربنا لأجلها غير ملائمة للحياة، وغير عملية وغير مريحة بحسب الشروط التي نظمت معركتنا». وتستطرد قائلة إن النساء اللواتي يؤمّنَ بها هن «النساء اللواتي يعشن وحيدات.... ينكرن الزواج والأمومة.. ويعشن حياة تظهر بوضوح المقاومة ضد العائلة. واللواتي يحاولن التآلف مع الحياة بشجاعة لإخفاء شعورهن بالوحدة والتوق إلى كل شكل من أشكال العائلة؟ يتساءل المرء إذا كانت هناك أي تربوية من دعاة حقوق المرأة تناسب ذلك الوصف حسب «بيتي فريدان».

لم تستطع «فريدان» حتى بالعودة إلى عام 1981، مشاركة الرأي مع أناس من أمثال «ليز» التي رجعت إلى مسرات الحياة العائلية باختيارها، والتي تعترف بقولها:

> أحب أن أقوم الآن بالأشياء التي لم تعد النساء تطيق القيام بها. ربما لأنني اخترت القيام بها. لقد صعقني كم كنت في الأعوام الماضية أتوق إلى إفراغ جلاية الصحون، إلى طي الغسيل والتنظيف... كل ذلك يسيطر على أفكاري أثنا قيامي بعمل أي شيء آخر. تنتابني أفكار مزعجة حول النساء اللواتي يعملن معي، وهن فوق الثلاثين والخامسة والثلاثين وليس لديهن أطفال ويتمزق قلبهن لذلك. لقد كانت لدي تلك الرغبة وأنا شاكرة الآن أنني أشبعتها، أشعر أنني أغنى بكثير من ذي قبل. إن العائلة تصقل حياتك وتبقيك على اتصال مع جوهر الحياة.

تقول «فريدان» أن المرأة التي تتجنب هذه المباهج البسيطة تفقد شيئاً في هذه الحياة. وتتساءل «ألا يجب أن تكون للحياة العائلية أي قيمة بشكل ما؟ ألم تكن داعيات حقوق المرأة على خطأ عندما اعتقدن أن كل الأشياء «التي كانت النساء تستمتع بالقيام بها بشكل تقليدي كتنسيق الزهور وخبز الكعك، كل الأشياء التي تجعل الحياة سارة أكثر» لا قيمة لها؟ كيف ستكون الحياة إذا لم يقم أحد بهذا العمل؟ ماذا إذا قامت إحدى دعاة حقوق المرأة، كرد فعل، بتجريد نفسها من كل تلك المهام النسائية الغير مناسبة، والتافهة والغير أساسية ـ والتوقف عن خبز الكعك نهائياً، وقص شعرها كالرهبان، وأخذ قرار بعدم إنجاب الأطفال، ووضع كمبيوتر في غرفة نومها؟ يبدو هذا قدراً أسوأ من الذي حاربت «فريدان» بشدة لتحرير النساء منه. إن داعية حقوق المرأة، تقول «فريدان»: تعاني من... أزمة ثقة جديدة». إنها لا تشعر بواقع الحياة وهي ترتعش في داخلها[25]. مع كل هذا يبدو أن كتاب «الغموض الأنثوي» ما زال يجذب انتباه المربيات من دعاة حقوق المرأة، وهن لا يرتبن في صحة ما فعلته «فريدان». إن ذلك الغموض الأنثوي هو الذي يشكل الأساس لسياستنا التربوية في بريطانية وأمريكا وأستراليا وبلدان أخرى.

«سيمون دو بوفوار» وسعادة الحياة المنزلية

لم تكن «فريدان» هي الوحيدة التي تغير تفكيرها حول تلك المسألة. في الواقع كانت النصيرة القيادية الأخرى لداعيات حقوق المرأة والمساواة في ذلك الوقت مترددة حول رأيين في تلك المسألة. إن قراءة كتابات «سيمون دو بوفوار» بعد عشرين عاماً من قراءتي الأولى لها فتحت عيني على أشياء أخرى. شعرت بإحساس غريب بأنه كان هناك شخصيتين بداخل «سيمون دو بوفوار» تكتبان. الأولى تقول كل تلك الأشياء التي اتهمتها «غراغليا» بقولها. هذا صحيح. وقد كان لهذا الرأي تأثيراً كبيراً في العالم، ولكن كانت هناك «دو بوفوار» ثانية تناضل للخروج. امرأة يبدو أنها تشعر بالسرور من كل الأشياء التي كانت تنتقدها في جزء آخر من كتاباتها. إذ عند قراءتي لكتابات «دو بوفوار» وجدت بعض

المقاطع التي بدت فيها مسحورة ومفتونة بالنساء اللواتي كن وما زلن يدركن الأهمية الكبيرة لقيمة الحياة العائلية في الحياة الإنسانية. أخيراً، صحيح أنه كان لـ «سيمون دو بوفوار» الهيمنة على تلك المسائل ولكن كان لدي شعور بعدم الارتياح حول في وجود سبب أساسي لذلك.

كان ذلك الشعور بسبب وجود بعض المقاطع التي تؤكد على متعة الحياة المنزلية بين التعليقات التي تنتقد الحياة المنزلية المهينة. تستطيع ربة المنزل أن تؤسس منزلاً يحتوي على كل ما ترغب به وذو قيمة أكبر من تصوراتها. «لديها تحف زيتية ثمينة لنباتات وحيوانات داخل منزلها من بلاد غريبة وأيام غابرة، ولديها زوجها الذي يمثل الحياة البشرية، كما لديها طفلها الذي يقدم لها المستقبل بأكمله في هيئة قابلة للحمل». ترى «دو بوفوار» أن المنزل يمكن أن يصبح «مركز العالم» وبمثابة «الملجأ والمأوى، والكهف، والرحم الذي يوفر الحماية من الأخطار في الخارج». «عند إغلاق مصاريع المنزل تشعر المرأة أنها تملكه». أما مهام المنزل فهي ذات قيمة أيضاً. فتحضير الطعام أمر مقبول، وتبادل الإشاعات على عتبة المنزل أثناء تقشير الخضار استراحة مبهجة من الشعور بالوحدة. والذهاب إلى السوق «بهجة عميقة واكتشاف قد يصل الى حد الإبداع». تعرف ربة المنزل أن الملفوفة جيدة، والجبن الطازج كنوز يجب أن تربحها بذكاء من البائع العنيد. إن اللعبة هي أن تحصلي على الأفضل مقابل أقل ما يمكن من النقود. تقول «دو بوفوار» أن ربة المنزل «مسرورة بنجاحها المؤقت بينما تتأمل غرفة المئونة المملوءة». أما في المطبخ فإنها تصبح «ساحرة عند القيام بحركات بسيطة مثل خفق البيض أو استخدام النار. إنها تؤثر في تحويل المواد: إذ تصبح تلك المواد طعاماً». في كل تلك «التحويلات» هنالك «سحر»: «هناك إضافة شاعرية في حفظ الخضار والفاكهة، فلقد عرفت ربة المنزل سر الحفظ لمدة طويلة وهو السكر». كما أن المرأة «تشعر بالرضا عند خبز كعكة جيدة أو رقائق معجنات، إذ لا يستطيع أي أحد القيام بذلك، يجب أن يكون لدى الشخص موهبة».

لم تكن المهام المنزلية فقط هي التي كانت تتغنى بها في ذلك الوقت، لتطلقها في تصريحاتها لاحقاً. باتت الأمومة مصدر سرور لها، وموجودة، من جديد، ضمن مقاطع تدينها بشدة. لكنها عندما تكتب «أن المرأة تشبع قدرها الفيزيولوجي من خلال الأمومة، إنه دافعها الطبيعي، ..... واستمرار الجنس البشري». ترى المرأة «في حملها الخلود» وتسلّم نفسها الى ذلك الطقس». تلاحظ أن الحياة العادية هي فقط حالة وجود، ولكنها أثناء الحمل تبدو خلاقة. وتقول أن بعض النساء «يستمتعن في مسرات الحمل والرضاعة حتى أنهن يرغبن في تكرار ذلك الى ما لا نهاية». عندما تكون المرأة حاملاً «يصبح جسدها شجرة مثمرة، شيئاً سامياً يسرع نحو المستقبل». تقتحم المرأة من جديد غمار الحياة، متحدة مرة ثانية مع الأشياء الكاملة. إنها حلقة في السلسلة المستمرة للأجيال، جسد وُجد وتواجد لمخلوق جديد.

> أثناء الحمل تكون المرأة شخصاً غير متأثر بالقلق الذي يرافق الحرية. إنها شخص يؤمن بحقيقة غير قابلة للتصنيف: الحياة. فهي على الأقل تملك جسدها بما أنه موجود للطفل الذي ينتمي إليها. إن المجتمع يدرك حقها في الامتلاك وسيستمر ذلك، علاوة على ذلك فإنه جعلها شخصية مقدسة.

هل يمكن أن تكون هذه «دو بوفوار» نفسها التي كتبت عن ربة المنزل أنها «تابعة، وعبدة، وعالة حقيرة، وقدرها أن تحمل الأطفال وتجبر على العناية بالمنزل بشكل مستبد، ومنزلها فهو بمثابة سجن لها؟» لأنه ليس هنالك أي شيء في تلك الأوصاف البديلة التي ذكرت سابقاً تؤيد مفهوم دعاة حقوق المرأة في «الكدح المنزلي». والتي تصف ربة المنزل بأنها حشرة، وبأنها بحاجة الى التحرير. لكن «و بوفوار» تستمر في وصف أكثر رقة. يوحي بأنه عند تقدم الحمل تصبح النساء أكثر حيوية:

> تجد كثير مكن النساء سلاماً رائعاً عند تقدم الحمل: يشعرن بأنهن نلن حقوقهن... لا يتم استدعائهن للعمل أو القيام بأي جهد.. ليس عليهن التفكير في الآخرين. إن أحلام المستقبل التي يتعلقن بها تعطي معنى للحظات الحالية، عليهن فقط أن يعشن حياتهن. إنهن في إجازة.

تصف «دو بوفوار» ذلك في حب واضح: إن سبب الوجود للمرأة الحامل موجود هناك، في داخل رحمها، ويعطيها شعور بوفرة الغنى. تصف ذلك إحدى الأمهات بأنه «مثل امتلاك مدفأة دائمة الاشتعال في الشتاء وهي ملكها فقط ورهن مشيئتها. وهو أيضاً مثل «دش» بارد مستمر في الصيف وينعشك. إنه هناك». تتابع «دو بوفوار» قائلة: «تشعر المرأة بالسعادة لأنها تحقق ذاتها، وتشعر أن ذلك ما كانت تتوق إليه منذ عمر المراهقة.. إنها تجسد الجنس البشري، إنها تمثل الوعد بالحياة وبالخلود. يحترمها المحيطون بها، وتصبح نزواتها مقدسة... بفضل وجود كائن داخل رحمها تستطيع أخيراً أن تتمتع بقدرتها على أن تكون هي نفسها بشكل كلي».

تقتبس «دو بوفوار» ما تقوله صديقتها «كوليت» في كتابها ـ غالباً تعود الى وصفها بمحبة، كما هو واضح ـ وتصف «الشعور بنشاط عارم بسبب حملها»:

> الشهر السادس، السابع...أوائل فاكهة التوت، الورود المبكرة. هل أستطيع أن أعتبر حملي أقل من كونه إجازة طويلة؟ لقد نُسيت آلام الولادة (الآن) ولكن لم يتم نسيان الإجازة الطويلة الفريدة من نوعها: أذكرها بأكملها. وأذكر بشكل خاص النعاس الذي كان ينتابني في أوقات غير عادية والشعور، كما في طفولتي، بالرغبة في النوم على الأرض، وعلى العشب وعلى التراب. كان هذا توقي الأوحد. عند اقتراب النهاية أصبحت مثل جرذ يحاول الهروب ومعه بيضة مسروقة. كنت غير مستريحة مع نفسي، وأصبحت متعبة جداً وغير قادرة على النوم... على الرغم من التعب والوزن الزائد استمرت إجازتي: لقد كنت أعتمد على غطاء الامتياز والانتباه.

ثم كانت هناك ولادة الطفل التي يرافقها الفضول المذهل لأي أم شابة. إنها معجزة غريبة أن ترى وتحمل كائن حي تكون داخلها وخرج منها. تتابع «كوليت» قائلة:

> يجسد الطفل الطبيعة بأكملها. تكون بشرة الوليد ناعمة، تلك النعومة الدافئة التي كانت المرأة عندما كانت طفلة صغيرة تشتهيها وتحبها في بشرة أمها، ثم في كل الأشياء لاحقاً. إن الوليد نبتة وحيوان في الوقت ذاته. عيناه المطر والأنهار

وزرقة البحر والسماء. أظافره مرجان وشعره ثمرة حريرية، إنه دمية حية، طائر، قطيطة. «إنه وردتي، لؤلؤتي، فرحتي، خروفي». تتمتم الأم بكلمات الحب، وكالعاشق تستغل حالة التملك. إنها تستخدم إيماءات التملك ذاتها: المداعبة والقبلات، تحضن الطفل في صدرها، وتبقيه دافئاً بين يديها وفي فراشها.

أخيراً، مثل امرأة في حالة حب، تكون الأم سعيدة لشعورها بأنها ضرورية. إن وجودها مبرر بالحاجات التي تؤمنها. لكن ما يعطي حب الأم صعوبته وعظمته هي حقيقة أنه ليس مشروطاً بالتبادل. هذا ما لا تفعله الأم مع الرجل، إن طفلها بطل، نصف إله ولكن مع روح صغيرة ثرثارة ضائعة في جسد رقيق يتكل على الآخرين". إن تربية الأطفال كما تقول «دو بوفوار» هي «المهمة الأكثر دقة وخطورة من أي شيء آخر: إنها تكوين إنسان»[26].

عند قراءتي لتلك المقاطع أثارت مشاعري ثلاثة أحاسيس قوية: أولاً شعرت بإحساس غامر بالرهبة والتعجب، بل وحتى بالغيرة حول طبيعة المرأة وما تستطيع القيام به. لقد تأثرت برقة، وحساسية وصدق وصف «دو بوفوار». لم أعتقد مطلقاً أنني سأجد ذلك في كتاب «الجنس الآخر» الذي بدأت قراءته بوجل وأنا أفترض أنه هجوم وحشي على وضع المرأة تحت السلطة الذكورية. عوضاً عن ذلك، دفعتني قراءة وصفها الى الرغبة في دعم المرأة في العملية بنفسي، ولشعوري بأن هناك شيئاً مفقوداً في حياتي إذا لم أكن شريكاً في العملية، على الأقل بالوكالة عنها، وهي الطريقة الوحيدة التي يمكن للرجل أن يشارك فيها.

لكن ثانياً، استوقفتني الشكوك في أن أجد أحداً يعتقد أن عالم العمل والسياسة والرياضة أو أي شيء آخر ـ حتى العمل كرائدة فضاء أو رئيسة للولايات المتحدة ـ يمكن أن يعوض أي امرأة عن خسارة ذلك اللغز الساحر. ولا أقول أن كل النساء تشعر بالسعادة التي تُعبر عنها «دو بوفوار» في تلك المقاطع المنتقاة. لقد شعرت بحزن شديد على النساء اللواتي تخلين عن ذلك من أجل الدخل المادي ولكنهن يتقن الى ذلك الشعور. هل يعقل أن على النساء التضحية

بهويتهن ووجودهن بسبب تأثرهن بالسياسة التربوية الداعمة قانونياً لحقوق المرأة التي قدسها رأي «دو بوفوار» الآخر، وآراء «بيتي فريدان» الأولى؟ هل يعقل أنه ليس بإمكانهن الاستمتاع بتلك اللحظات التي وصفتها برقة «دو بوفوار» البديلة، وأن عليهن الاستمرار في العمل حتى ولادة طفلهن ـ بينما كانت «كوليت» في المراحل الأخيرة من الحمل تنام على العشب وتفوح منها رائحة التوت ـ ثم العودة إلى العمل حالما يستطعن لاحقاً، ويتركن أطفالهن لنسوة غيرهن ليهمسن لهم ويدغدغنهم مثل عاشق؟

أستطيع فقط أن أفهم بإنصاف قوانين الدولة التي تعترض على استمتاع النساء بحملهن على أنه إجازة طويلة، ورغبتها في سوقهن إلى العمل تحت اسم العمل المنتج كالغنم حال انتهاء مهمة الإناث من عملية التكاثر ـ لكن لماذا تريد أخواتهن، داعيات حقوق المرأة، سوقهن إلى العمل؟ إلا إذا كان هناك سبب آخر، وهذا هو الإحساس الثالث الذي أشعر به.

خداع «دو بوفوار»

من الواضح أن «دو بوفوار» ممزقة بين كل هذا. في بعض الأحيان تبدو سعيدة بكل الغموض الأنثوي، وتتمتع بكونها امرأة ـ يمكن مضاعفة الأمثلة التي ذكرت سابقاً ـ مستمتعة في وصفها للأمومة نيابة عن كل النساء. مسرورة بالنساء العاشقات وببهجة الحياة العائلية. لكنها في النهاية تقرر أن تلك الطريقة، ليست الطريقة الصحيحة في الحياة، ولا يمكن أن تكون النساء خاضعات لأحد. بل يجب تحريرهن من كل ما يرغبن به.

ماذا يجري؟ أنا لست الوحيد الذي وجد تلك الكتابات متناقضة ومحيرة إلى حد ما. حتى أن المتعاطفين المتعاطين مع دعاة حقوق المرأة اعتبروا كتاب «الجنس الآخر» آسر لا يقاوم، ومع ذلك مربك[27]. إن «دو بوفوار» ليست كاتبة بالنسبة لهؤلاء «الذين يفضلون أن يكون المفكرون منطقيون وغير متناقضون»[28]. لكن أين يكمن مصدر هذا التناقض المحير؟ عند قراءة كتاب «الجنس الآخر» لا يستطيع المرء إلا أن يخمن

أن هناك شيء غريب يحدث خلف الكواليس. وكأن هناك أحداً ما يقرأ تطور المخطوطة ويتأكد من أن الكاتبة قد كبحت أفكارها ورغباتها الحقيقية وعكست استنتاج مختلف وموافق عليه لا تقره من أعماقها. بالطبع، كما هو معروف كانت «دو بوفوار» طوال حياتها على علاقة مع الفيلسوف الوجودي «جان بول سارتر» بالرغم من أنهما لم يتزوجا ولم يعيشا معاً ولم يكن لهما أطفال. ربما نستطيع أن نجد سبب هذا التناقض المحير في كتاباتها عن النساء في تلك العلاقة.

لقد أظهرت علاقتهما «عدم تكافؤ واضح» وهو الذي تعلق عليه إحدى الناقدات بصوت عالي «إنها» دو بوفوار «وليس سارتر التي كتبت عن علاقة الصداقة». لقد بقي «سارتر» في صمت مطبق حول تلك المسألة بعد أن نُشرت بعض رسائله إلى «دو بوفوار»، فهي تبقى الدليل الوحيد على علاقة دامت أكثر من خمسين عاماً. تقول إحدى الناقدات «لقد أتبع الاثنان القاعدة القديمة التي تقول أن الحب بالنسبة للرجل سطحي، بينما هو بالنسبة للمرأة وجود ذاتها»[29]. من الواضح أن «دو بوفوار» لم تكن سعيدة بذلك كله. كتبت وهي في الـ 54 وهو بالكاد سن كبير حسب رأي بعض الأشخاص ـ صورة مروعة عن حياتها:

> لقد ظننت وأنا في الأربعين أن «الشيخوخة تنتظرني في المرآة، وتلك فكرة متوقعة وتستحوذ على تفكيري. وقد حدث هذا الآن. إنني أقف مذعورة أمام هذا الشيء الذي لا يُصدق والذي يصور وجهي... إنني أكره انعكاس صورتي. هناك غطاء فوق عيني وجيوب صغيرة تحتهما، إن وجهي ممتلئ أكثر مما يجب وهنالك التعبير الحزين حول الفم الذي تسببه التجاعيد... أرى وجهي السابق الذي شوهته الشيخوخة الى درجة لا يمكن إصلاحها... لم يتبقى أي شيء كتبت عنه أم لم أكتبه. لو أن أفكاري قد أثمرت عن أي شيء؟ تلة؟ صاروخ؟ ولكن لا شيء. لم يحصل أي شيء.. عندما أنظر الى الماضي... وأتساءل كم كنت ساذجة في سنين مراهقتي وأصعق عندما أتبين كيف خُدعت بشكل كامل[30].

إذاً ما هو السبب الذي أدى الى هذا الإحساس العميق بالخداع؟ إن قراءتي لسيرة حياتها الذاتية وتعليقات دعاة حقوق المرأة توحي بما يلي:

لقد وقعت «سيمون دو بوفوار» الشابة الذكية جداً في غرام «شخص أسمى منها» كما تقول. رجل كانت تبحث عنه منذ كانت مراهقة. حول مقابلتها «سارتر» للمرة الأولى تقول «لقد كانت المرة الأولى التي شعرت أنه تم السيطرة علي فكرياً... لقد كان «سارتر» يمثل تماماً الشخص الذي حلمت به عندا كنت في الخامسة عشر من العمر. لقد كان رفيقي عندما أعدت اكتشاف أذواقي وحماستي، وكان مهذباً إلى درجة عالية. كنت أستطيع دائماً أن أشاطره أي شيء [31]، ويوماً بعد يوم وطوال الوقت كنت أقارن نفسي به. ومن خلال مناقشاتنا اكتشفت أنني وبكل بساطة لست في مستواه»[32]. قيل لي أن كثير من النساء شعرن بالعطف من موقفها. على سبيل المثال، تقول «كارولين غراغليا» عن «دو بوفوار» «إن شعورها الواضح بالإثارة لملازمة ذلك الرجل العظيم لها مألوفاً لدى النساء (لم أشعر بالأسف عندما أدركت أنه من الممكن أن يضربني زوج المستقبل أثناء النقاش). «من الممكن أن تخدم تلك الإثارة النساء... إن الخضوع لرجل متفوق يمكن أن يعزز إشباع المرأة الجنسي والفكري[33]. علاوة على ذلك (كما يعرف كل فرد قرأ سيرتها الذاتية) عندما اجتازت «دو بوفوار» امتحان الفلسفة، كان ترتيبها الثاني بعد «جان بول سارتر»[34].

لكن الوقوع في حب إنسان معقد وأناني يؤمن بالعدمية مثل «سارتر» لن يكون سهلاً ولا مرضياً، كما تبين لاحقاً. لقد بدأت «دو بوفوار» العلاقة وهي تفترض الحصول على توقعات كل امرأة شابة (ليس كل التوقعات). إنها ابنة عصرها، وسيرتها الذاتية توضح أنه كان لديها التوقعات العادية للشابات نتيجة علاقة جنسية. على سبيل المثال، في القسم الأول من الفصل الأول من المجلد الثاني لسيرتها الذاتية، في بداية كتابها «ربيع الحياة» (المهدى إلى سارتر)، نرى «دو بوفوار» الشابة مستغرقة في متع الحياة المنزلية.

عندما كانت تعد منزلها الجديد في باريس وتنتظر عودة «سارتر» من إجازة الصيف، بدت كعروس في تلك الصفحات الثلاثة الأولى: الأثاث الجديد الذي ابتاعته، وورق الجدران والملابس الجديدة التي قامت بشرائها[35].

بعد ذلك، جاء الحدث الكبير: «بدأت حياتي الجديدة الحقيقية عندما عاد «سارتر» في منتصف تشرين الأول»[36].

ولكن إذا كانت تريد أن تتشاطر مباهج تلك الحياة المنزلية مع «سارتر» فسوف تصاب بالإحباط. إذ كان يمقت الحياة العائلية والحياة المنزلية، ويكره الإحساس بأن شخصاً ما يعتمد عليه. تروي «دو بوفوار» كم كانت راضية أثناء تلك الفترة «كنت أعيش في سعادة»[37]. لكن «سارتر» لم يقبل بأي شيء من ذلك. قال لها في بداية علاقتهما وهو يوبخها: «لقد كان لديك الكثير من الأفكار الصغيرة، كنت مثابرة»[38]. ثم اتهمها بأنها تحولت إلى «أنثى تركز على ذاتها». وتتلقى «دو بوفوار» ذلك النقد بأسى. تكتب قائلة أنه يتهمها بأنها أصبحت مجرد ربة منزل: «كان يقارنني بالبطلات اللواتي ـ بعد معركة طويلة لنيل استقلالهن ـ انتهين بأن أصبحن راضيات بكونهن زوجات. كنت غاضبة من نفسي لأنني خيبت أمله بتلك الطريقة»[39]. لقد أدى كونها ربة منزل سعيدة إلى استنكار «سارتر» فوجب عليها أن تتغير وتتصل من تلك الحالة. لذلك، بسبب خيبات أمل كتلك، من الصعب عدم رؤية آراء «سارتر» الكارهة للزواج تنتقل إلى آراء «دو بوفوار» وتتطور لتصبح جاهزة للكشف عنها في كتابها «الجنس الآخر».

ماذا عن الأمومة؟ إن أقرب شيء عرفته «دو بوفوار» عن الأمومة كان الإجهاض[40]. كانت الصفحات العشر الأولى من الفصل عن الأمومة في «الجنس الآخر» كلها عن بشاعة الإجهاض. يبدو على الأرجح من وصفها أن الإجهاض كان مفروضاً عليها من «سارتر»: كتبت تقول في «الجنس الآخر»: إن الرجال ينزعون إلى أخذ موضوع الإجهاض باستخفاف.

يعتبر الرجال الإجهاض أحد المخاطر العديدة التي فرضتها الطبيعة الخبيثة على النساء. لكنهم يخفقون بشكل كامل في إدراك ما يتضمنه ذلك من قيم. إن المرأة التي تلجأ إلى الإجهاض تنكر الاعتراف بالقيم الأنثوية، قيمها... إن عالمها الأخلاقي الكامل قد تمزق[41].

يبدو عدم إنجاب «دو بوفوار» للأطفال غريباً لبعض دعاة حقوق المرأة. على سبيل المثال، تشعر «ماري إيفان»، وهي أستاذة في قسم دراسات المرأة، بالحيرة نظراً إلى أن «دو بوفوار» كانت مبهورة بالجنس «الجدير بالملاحظة أن امرأة كانت تستمتع بالملذات الحسية بهذا القدر (وتسترجع بوضوح المتع الطبيعية في طفولتها) لا يلفت انتباهها إمكانية إعادة خلق تلك الأيام لنفسها»[42]. في النهاية تعتبر أن اعتراضات «دو بوفوار» بمثابة المعنى الظاهري بأنها سعيدة تماماً مع سارتر «إنه كافي لي ولنفسه... لم أحلم مطلقاً بأن أعيد اكتشاف نفسي من خلال طفل يمكن أن أحمله»[43]. في مواضع أخرى حُذرنا بأن نحترس من المظاهر الخارجية التي تقدمها عن نفسها «دو بوفوار» في سيرتها الذاتية، وأننا يجب أن نأخذ بعض الحذر في تلك المواضيع[44]. على الأقل، يستطيع المرء القول، إذا تكلمنا بالمنطق، أنه إذا فُرضت الإجهاضات على «دو بوفوار» من قبل «سارتر» عندها يكون بالطبع عدم حصولها على الأطفال قد فُرض عليها من قبله أيضاً.

على كل حال، إذا كان «سارتر» يكره الأشياء التي ترغبها النساء، فإنه بالتأكيد لم يتجنب رفقة النساء. وبدقة أكبر إقامة علاقة جنسية مع النساء. في باكورة علاقته مع «دو بوفوار»، أخبرها أن العلاقات الأحادية لم تعد موجودة، وأن على كل منهما القيام بعلاقات جنسية إضافية. عملياً، كان هذا يعني أنه سيقيم علاقة مع أية امرأة يستطيع الحصول عليها، وأنه سيكون لها علاقة غرامية بين الفينة والأخرى للتعويض عن الوقت الذي يكون فيه مع أخريات (على سبيل المثال، إن علاقتها الشهيرة مع الأمريكي «نلسن أليجرن» التي كانت الفكرة الأساسية لقصة الحب في روايتها «المندرين» تكونت ببساطة، كما تقول «دو

بوفوار» عندما طلب منها «سارتر» عدم العودة إلى باريس من نيويورك لأن محبوبته في ذلك الوقت «M» أرادت المكوث وقتاً أطول في باريس. إذ لم يحتمل «سارتر» وجود «دو بوفوار» أثناء وجود محبوبته، رغم أنه و «دو بوفوار» لا يعيشان معاً![45]. لكن من ناحية ثانية، إذا صدقنا فكرة أن «دو بوفوار» كانت لديها طموحات تقليدية فإن «سارتر» كان يعارضها. «لقد كان «سارتر» هو الذي شرح لـ «دو بوفوار» طبيعة ما ستكون عليه علاقتهما»[46]. كانت «دو بوفوار» واضحة عندما قالت هذا. وتخبرنا أنهما قد اختلفا حول فكرة وجود علاقات جنسية إضافية، ولكنها في النهاية أذعنت للأمر الواقع[47].

بما أننا نتكلم عن موضوع علاقة «سارتر» مع «M»، هناك مقطع في سيرتها الذاتية واضح إلى حد ما. حيث تعلق «دو بوفوار» على أحد شجارات «M» مع «سارتر»:

> إذا كان يحبها، فكيف يستطيع عدم رؤيتها لعدة أشهر متتالية؟ لقد استمع إلى تذمرها بندم، وشعر أنه هو الملوم في تلك العلاقة. بالطبع، لقد حذرها من استحالة العيش معها. لكنه بقوله أنه يحبها دحض ذلك التحذير، لأن الحب خاصة حسب آراء النساء ـ يتغلب على العقبات ـ لم تكن «M» مخطئة[48].

من الصعب عدم تخيل أن الأفكار ذاتها تنطبق على «دو بوفوار» نفسها، ويكشف ذلك مرة أخرى عن الطرق التقليدية التي أرادت بها «دو بوفوار» أن تتطور علاقتها مع «سارتر» فيما لو كان غير مفرط في أنانيته.

هكذا تتعلم «دو بوفوار» كل ما يجب معرفته عن العلاقات بين الرجال والنساء من «سارتر». وقد نما نقدها القاسي للحرية والاستقلالية في تلك الفترة. لاحظت إحدى الناقدات من دعاة حقوق المرأة ذلك الأمر وكتبت: «يستطيع قراء «دو بوفوار» الحدس أن الشيء الذي أرغم «دو بوفوار» على الحرية والاستقلال هو فقط خسارة الرباط الخاص الوحيد الذي شعرت به سابقاً بينها وبين «سارتر»[49]. وقالت أخرى: «لا يستطيع المرء عدم الشعور بأن البشاعة المتطرفة

للسلبية والضعف والإتكالية والذاتية في «الجنس الآخر» تعبر بطريقة ما عن رد فعل «سيمون دو بوفوار» تجاه فسحة من شعور قوي بالإتكالية في داخلها. كما كل المفكرين... لقد أنشأت نظرية جزئية من ملاحظتها وقناعتها بالإضافة إلى حاجاتها العاطفية الباطنية[50].

لكن، ويمكن لهذا أن يساند تفسيري للأحداث بشكل أعمق، باعتبار أن فكرة كتابة «الجنس الآخر» كانت لـ «سارتر». بحلول عام 1946 كانت «دو بوفوار» قد أثبتت نفسها ككاتبة ولكنها شعرت بأنها عاطلة عن العمل، راغبة بالكتابة ولكن لم يكن لديها أي موضوع[51]. اقترح «سارتر» فكرة كتاب عن النساء: «قلت لـ «سارتر» بالنسبة لي، فإن كوني امرأة لا يؤخذ بعين الاعتبار. لكن أشار «سارتر» إلى أنه «رغم ذلك، لم تربي كما يربى الفتى، عليك أن تدرسي الأمر أكثر»[52]. تقول «دو بوفوار»: لم يكن هناك أمراً غير عادي، فلسفياً وسياسياً كانت المبادرة دائماً تأتي منه». وكما كتبت في مذكراتها: «إن «سارتر» خلاق فكرياً وأنا لست كذلك».

لاحظت بعض داعيات حقوق المرأة السخرية في كل ذلك ولكن «ليس هناك أي إشارة إلى ذلك». لم تلاحظ «دو بوفوار» ذلك الأمر: «بما أن نساء أخريات قد اكتشفن الكثير عن العلاقة بين «دو بوفوار» و «سارتر»... يبدو الآن أن اقتراح «سارتر» ذلك كان وكأنه يعطي «دو بوفوار» المهمة الفكرية التي تمكنه من فهم النساء وطبيعة علاقته بهن. وأياً كانت القضية[53]:

> عندما أعطيت الوظيفة، بدأت «دو بوفوار» بحماس اكتشاف تلك القبيلة غير العادية التي تدعى «النساء». كانت طريقتها في بناء «الجنس الآخر» هي متابعة كل الكتابات الموجودة في قوائم المكتبات عن النساء، ثم تنظيم تلك الكتابات ضمن إطار النظرية الفكرية للوجودية.

بمعنى آخر، لقد قامت بما طلب منها «سارتر» القيام به، ووضعت كل ما وجدته ضمن الإطار النظري الذي خلقه «سارتر». وضمن إطار «سارتر» الوجودي حول الحرية والأصالة والاستقلالية والذاتية. كان من الصعب التعامل مع النساء بعطف.

يقود كل ذلك إلى السؤال الهام عن أعمال «دو بوفوار» خلال الفترة التي كانت تكتب فيها «الجنس الآخر»: «بأي إحساس كانت تعبر عن آرائها الشخصية، أو إلى أي حد ذهبت في كتاباتها كي ترضي، وتسلي، وتغري وبشكل رئيسي كي تحتفظ بـ «سارتر؟»[54].

الشيء الغريب هو لو أن «الجنس الآخر» كتبه حقيقة «جان بول سارتر» (وهذا مستبعد)، فإنه كان سينبذ منذ وقت طويل باعتباره تبجح كاره نساء، متعصب وذو تاريخ في الإساءة إلى النساء. ولكن عوضاً عن ذلك فقد تم دعمه والمناداة به من قبل دعاة حقوق المرأة. عندما توفيت «سيمون دو بوفوار» في مدينة باريس عام 1986 كانت تعتبر عالمياً أم حركة دعاة حقوق المرأة المعاصرة، الباحثة البارزة في القرن العشرين[55]، «وإحدى أعظم الكتاب والفلاسفة في القرن العشرين»[56]. وقد تم اعتبار «الجنس الآخر» على أنه «أكثر الكتابات النسائية أهمية في القرن العشرين»[57]. وأنه «أحد أبرز نماذج الكتابات الفريدة من نوعها حول الأوضاع الإنسانية التي تظهر قوتها فقط عند كشف أوجهها المختلفة ودراستها»[58]. كُتب كل ذلك عن الكتاب الذي نجح أخيراً في تشويه كل ما تناضل المرأة لأجله محاباةً لامرأة تريد التشبه بالرجال بأكبر قدر. أو بكلمات أخرى، بقدر ما تستطيع «دو بوفوار» أن تصبح مثل «ساتر» من أجل الاحتفاظ بحبه.

تتساءل إحدى داعيات الحركة النسائية إلى أي حد سيكون التاريخ الفكري في القرن العشرين في أوروبا مختلفاً لو «استطاعت «دو بوفوار» بشكل من الأشكال أن تجمع تلك الحفنة من النقاط الإضافية وأن تتفوق على «سارتر». ما الذي يمكن أن لا تقوم «دو بوفوار» به لو ثبت لها بشكل موضوعي أنها أكثر ذكاء من «سارتر»؟[59]. هناك سؤال افتراضي أكثر تشويقاً: يتساءل المرء كيف يمكن أن تكون الأوضاع الفكرية في أوروبا في القرن العشرين لو كانت «دو بوفوار» قد وقعت في حب رجل أراد إعطائها ما ترغب به كامرأة؟

ربما، عندئذٍ كان من الممكن تجنب ذلك المأزق الهام والمؤثر على الحركة النسائية المعاصرة، وعلى السياسة التربوية الحالية، الذي قاد «دو بوفوار» إلى اعتناقها فكرة المساواة بين الجنسين والتي أدت بدورها إلى الفرضية الرهيبة التي أطلقتها «دو بوفوار» في عام 1970، عن كيفية خلق المرأة المستقلة: «ليس لأحد السلطة على إجبار المرأة على البقاء في المنزل وتربية الأطفال. لا يجب إعطاء النساء ذلك الخيار لأنه بوجود ذلك الخيار بالذات، فإن الكثير من النساء سيقمن به. إنها طريقة لدفع النساء في اتجاه معين»[60].

أو كما قالت قبل 36 عاماً في كتابها «الجنس الآخر»: «ما هو مربك إلى أقصى حد للنساء اللواتي يهدفن إلى الاكتفاء الذاتي هو وجود نساء أخريات لهن ذات الوضع الاجتماعي. منذ البداية لهن الوضع ذاته والفرص ذاتها، اللواتي يعشن مثل الطفيليات... إن صديقة متزوجة أو صديقة يعيلها أحد ما تبدو فكرتها مغرية بشكل ما إلى شخص يخطط لإنجاز نجاحاته بنفسه». هي تخبرنا بصراحة أن إمكانية أن تصبح ربة منزل كافٍ لإيقاف أية شابة تناضل لتحقيق طريقها نحو الاستقلال: إن الأمل في أن تتخلى عن العناية بنفسها، والخوف من أن تفقد ذلك الأمل إذا تولت القيام بهذا العمل لفترة من الزمن يمنعانها معاً من انكبابها بدون قيد أو شرط على دراستها ومهنتها[61].

ماذا عن المربيات اليوم؟ عندما يهاجمن العمل المنزلي، والمهمة الدائمة التي لا يمكن تجنبها وهي تربية الأطفال، هل هن متأكدات من أنهن يتكلمن بالنيابة عن كل النساء، أم نساء على شاكلتهن؟ وكم من النساء، نساء مثلهن، مثل «دو بوفوار» يُبعدن ذكريات مؤلمة كي يستطعن أن يفرضن برنامجهن على النساء الغير جاهلات.

هل من المحتمل على الأقل أنه عندما تستبدل النساء أنوثتهن بأجر يفقدن شيئاً ما، وأن تكون بناء حياة عائلية من الأولويات المسببة للسعادة لا في الوقوع في مأزق؟ وهل من الممكن على الأقل أن الفتيات العاملات في السبعينات ـ والفتيات اللواتي ما زلن يقاومن هجوم دعاة حقوق المرأة ـ كن مدركات لشيء أكثر أهمية أخفقت المربيات في إدراكه؟

عبودية النساء في منفاهن الاختياري (الزوجات)

ذهبت مؤخراً في زيارة إلى منزل أستاذ (متقاعد) للحديث حول عمل لا يمت لهذا المشروع بصلة. كان العمل ممتعاً، ولكن الأكثر إمتاعاً ما قالته زوجته بينما كانت تقدم الشاي والكعك المنزلي. لقد وصفت الوقت الذي كان ينمو فيه أولادها. كان ذلك عندما جاؤوا إلى هذه المدينة، وكانت قد تخلت عن عملها الأكاديمي الواعد كي تستطيع العناية بأطفالها. قالت: «كان ذلك أسعد أيام حياتي ولم أكن لأقايضه بأي شيء آخر». ولكن عندما لاحظت أن تلك الأشياء لا يمكن قولها ضمن مجتمعنا الحالي اعتذرت قائلة: «بالطبع الأمور مختلفة الآن، لا ترغب ابنتي في تلك الحياة لكن ذلك كان رائعاً بالنسبة لي».

كانت «دو بوفوار» تدرك أنه يجب إجبار النساء على أن يكن أحرار، لأن الغموض الأنثوي كان له سحره القوي. أدركت أن الثقافة والتعليم هما السبيل إلى حدوث ذلك. وعن طريق الإصلاحات مثل قانون IX، ومرسوم التمييز الجنسي في السبعينات، حتى المناهج التربوية الوطنية اليوم، نجحت حركة دعاة حقوق المرأة في جعل التعليم المدرسي عملية فعالة في إجبار النساء على أن يكن أحرار. لا نستطيع التفكير بأي مكان في المدارس تستطيع النساء الحصول على الاكتفاء والسعادة التي لمحت إليهما «دو بوفوار»، أو طرق تستطيع النساء من خلالها أن يجدن الاكتفاء عوضاً عن رجل. تستطيع النساء كما، تقول المدارس الفكرية، أن تلتمس الاكتفاء فقط في عالم الرياضة، والسياسة، والعلوم، والأعمال وليس في المنزل. ولكن ألم نفقد شيئاً قيماً هنا؟ هل نحن متأكدون أننا نفضل أن نعيش في هذا العالم الذي خلقته داعيات حقوق الإنسان، عالم المساواة عوضاً عن العالم الذي تاقت إليه «دو بوفوار» خفية. والذي أدانته «فريدان» في بادئ الأمر وتراجعت عن إدانتها له لاحقاً؟ بالطبع هذا ما تناقشه كثير من النساء في هذه الأيام. هذه أصوات لا تُسمع في مقرر الدراسة الجنسية. أصوات تتيه في مجالات عقيمة، كما تسميها «روزاليندا كاورد» في كتابها «بقرات مقدسات». ولكن هذه الأصوات تستحق أن تُسمع وسأكشف عن بعضها هنا.

قبل أن أقوم بذلك، لنكن واضحين حول نقطة معينة. لا تقول هذه الأصوات أن على كل النساء أن يُقدرن عالم الحياة المنزلية والأمومة: على العكس. أحد هذه الأصوات، «كارولين غراغليا»، على سبيل المثال، تشير إلى أن هناك ثلاثة فئات من النساء: أولاً هناك النساء اللواتي ليست لهن رغبة في الزواج، أو غير قادرات على ذلك، واللواتي كرسن أنفسهن لعملهن أو للرهبنة في السنوات الماضية. الفئة الثانية هن النساء اللواتي تزوجن وحملن أطفالاً لكنهن مثل «أرستقراطيات الأيام الماضية أو نخبة صناع الفنون اللواتي يتركن للآخرين أمور العناية بالمنزل، والمحافظة عليه والإشراف على تربية أطفالهن، بينما يتابعن أعمالهن واهتماماتهن الأخرى. أما الفئة «دو بوفوار» الثالثة فهن اللواتي اخترن الزواج كمهنة رئيسية وكرسن أنفسهن بشكل كبير للزوج والأطفال والحياة العائلية.

في الماضي، كما تقول «غراغليا» كان هناك معاهدة بين المجموعات الثلاثة، وهي أنهن سيعشن ويتركن الأخريات يعشن كل حسب أفكاره. ولكن «حطمت «بيتي فريدان» كل ذلك في التسعينات. ولأن النساء يبالين كثيراً بما تفكر به النساء الأخريات، ويسعين للحصول على استحسان النساء الأخريات بشكل رئيسي، تحطمت ثقة الفئة الثالثة بأنفسهن كما تقول: «لقد حرّضت حرب الحركة النسائية ضد ربات المنزل، السواد الأعظم من المجموعات النسائية الأكثر ثقافة وخبرة، والأكثر عدوانية، والمتشبهات بالذكور، على الوقوف ضد النساء الأقل ثقافة وخبرة في الحياة، واللواتي هن عادة مطيعات أكثر من كونهن عدوانيات ويتمتعن بصفات الأنوثة أكثر من صفات الذكورة». وتستطرد «غراغليا» قائلة: «إن ربة المنزل ليس فقط لا تملك أي مجال للمناقشة، بل هي لم تتخيل قط أنها ستدعى للدفاع عن سبب وجودها. وحتى وقت قريب، جعلها المجتمع تعتقد أن صد الهجوم القاسي على قيمة وجودها يقع على عاتق الرجال لا النساء». كانت الحركة النسائية غادرة عندما كانت تدّعي أنها تتكلم بلسان النساء جميعاً، ولكنها كانت تمثل الفئة الأولى والثانية فقط بينما أغفلت الفئة الثالثة، وهن النساء اللواتي يرغبن في أن يصبحن ربات منازل وأمهات.

ما تقوله تلك الأصوات النسائية هو أن قواعد المجتمع الحالية تدفع النساء في اتجاه واحد: بالطبع، إن دعاة حقوق المرأة والمجتمع يؤيدون بشكل كبير الخيار الذي يقول أن النساء يجب أن تكون لهن حرية أحد الطرق أو الآخر في الحياة، أن يصبحن ربات منازل أو نساء عاملات. لكن هذا لا يعكس الواقع. كما رأينا سابقاً في المناقشة عند بداية هذا الفصل والمتعلقة بالنظام التربوي بشكل خاص ـ هذا ينعكس على نواحي أخرى في حياتنا ـ كان هناك ضغوط على النساء كي يحرزن النجاح في المجال الذكوري، أي في مجال الأعمال والرياضة والعلوم والسياسة. وكانت النساء يدركن «إذا كن يفضلن الانتماء إلى الفئة الثالثة أم لا، واللواتي كن أقل ملائمة للكفاح في أماكن من الاهتمام بالزوج والأطفال والمنزل». فإذا لم ينجحن في المجالات التي يمليها المجتمع فلن يكنّ موضع تقدير من قبل المجتمع الذي خلقه وأيده المربين من دعاة حقوق المرأة. لذا، يجري إبعادهن وتصبح حدود حياتهن المنزل، والعلاقات الشخصية مع الزوج والأولاد. ويصبح همهن الأكبر أن يشعرن بالتقدير لذلك[62].

إن النساء ـ من مختلف الأجيال ـ مثل «كارولين غراغليا» (سكون الحياة العائلية)، و «دانييل غريتن» (ما لم تخبرنا عنه أمهاتنا)، و «ميلاني فيليبس» (المجتمع الذي تغير فيه الجنس)، «جين إلشتاين» (الرجل الاجتماعي، المرأة المنعزلة)، و «مورين فريلي» (ماذا عنا)، و «إليزابث بيرل ماكينا» (عندما لا يكون العمل فعالاً)[63]. إن كل تلك النسوة يعترضن على سيطرة دعاة حقوق المرأة (المطالبات بالمساواة).

أولاً، تعترض تلك النساء على الخرافة التي تقول أن النساء يُجبرن على البقاء في محيط المنزل المنعزل وضمن العائلة، وأنه من غير الممكن أن تكون النساء قد أذعن لهذا الأمر عن طيب خاطر. تناقش «ميلاني فيليبس» هذا الأمر قائلة: «كان الدخل العائلي يوماً يعتبر كتحرير للنساء اللواتي لم يرغبن،

عندما أصبحن أمهات، في العمل خارج المنزل[64]». كما تقول «كارولين غراغليا»: «إن فشل النساء في انتهاز الفرص المتاحة وممارسة تأثيرهن في الساحة العامة كان دائماً خياراً للنساء لا يرغب دعاة حقوق المرأة الاعتراف به. بعيداً عن كونهن أُجبرن على البقاء في المنزل، اكتشفت مثيلاتها من النساء ـ «غراغليا» الآن في السبعينات من العمر وكانت قد دخلت ميدان العمل في الخمسينات ـ أن العائق الوحيد الذي منعهن من النجاح في ميدان العمل كان رغبتهن الشخصية في تركيز جهدهن بشكل كافي على دورهن في الأمومة والحياة العائلية لتحقيق أهدافهن».

كما لاحظنا سابقاً، من الهام جداً أن كل من «سيمون دو بوفوار»، «بيتي فريدان» كانتا مدركات لهذا الأمر. وقد وصفنا سابقاً قلق «دو بوفوار» من أن السماح لعدد كبير من النساء اتخاذ طريق الحياة العائلية سوف يقود إلى إغراء النساء اللواتي كن يحاولن الحصول على الاستقلالية والخضوع لإغراءات الحياة العائلية الممتعة. بالطبع، كانت القوة الأساسية الدافعة إلى كتابة «بيتي فريدان» الغموض الأنثوي هي إدراك ذات الأمر. انغمست كثير من النساء في «شعورهن الخاطئ» بسبب الغموض الأنثوي، ولهذا خضعن إلى المباهج العديدة للحياة الزوجية والأمومة: «تعترف «فريدان» بصراحة ـ ما كان واضحاً هو حقيقة أن النساء الجامعيات كن يتجنبن المهن ويكرسن حياتهن للعائلة، وهذا ما أردن القيام به لأنهن عانين من التمييز». وتقر «فريدان» أن كل المهن أصبحت أخيراً مباحة للنساء. لقد تم التخلص من كل العقبات القانونية، والسياسية، والاقتصادية، والتربوية التي كانت تمنع المرأة من التساوي مع الرجل». ومع ذلك، هناك مشكلة تواجه «فريدان»: «قليل من النساء لديهن أهداف في الحياة غير أن يصبحن زوجات وأمهات، وذلك لأنه جرى خداعهن بالغموض الأنثوي».

بالطبع، إن وصف «كارولين غراغليا» لكيفية تربيتها والمهنة الأولية تدعم إدعاءاتها:

إن العوائق الاجتماعية راسخة في ذاكرة داعية حقوق المرأة بشكل قوي لا يدعها تحقق أهدافها في أن تصبح عالمة أو أستاذة جامعية. عندما التحقت بالجامعة في عام 1947، كنت أعرف أن النساء كنّ موجودات، ولو بأعداد قليلة، في جميع الاختصاصات. كان الطبيب الذي أجرى لي الفحص الطبي امرأة، وكان المحامي الذي مثل والدتي في قضية طلاقها عام 1936 امرأة. وكان رئيس شركة «ترنتون للإعتمادات» حيث فتحت أول حساب لي في عام 1942 امرأة.

وتتحدث بشكل مفصل عن كيفية فهمها لتطورها المهني في السابق:

كنت محامية ممارسة في الخمسينات. قررت منذ أن كنت في المدرسة أن أصبح محامية حتى الوقت الذي توقفت فيه عن العمل للعناية بعائلتي. كنت دائماً أتلقى التشجيع والدعم، لم يكن بإمكان شخص من الطبقة العاملة يعيش على خط الفقر وله أم مطلقة، العيش دون أن يعمل. كانت كل نفقات دراستي الجامعية الأولية ودراستي في كلية الحقوق تُدفع من قبل منح دراسية ومن عملي. ولقد ساعدني أساتذتي في المدرسة والجامعة في جهودي للحصول على تلك المنح الدراسية ومساعدات أخرى، بدون أي شك عما إذا كانت طموحاتي مناسبة لامرأة. لم يكن هناك أي طرح لهذا الموضوع في أي جلسة حيث كنا نجتمع لمناقشة خياراتي التعليمية، وكيفية تأميني للرسوم الدراسية... على عكس الرأي القائل أن المجتمع كان يحاول أن يثبط بشكل دائم نشاط النساء في سوق العمل، اكتشفت أن معارفي في المجتمع كانوا يساندونني بشكل كبير كما كان رؤسائي وزملائي في العمل كانوا يشجعون سعيي للحصول على مهنة... كنت أُعامل كما يعامل الرجال الذين كنت أنافسهم، وأحياناً كنت أعامل بشكل أفضل[65].

على كل حال، خشية أن يظن مناهضوا دعاة حقوق المرأة أن تلك كانت أحداث محرفة من الماضي للحصول على التأييد، نرى أن «سيمون دو بوفوار» تشير إلى نقاط مشابهة إلى حد ما، ولكن في أوروبا في الثلاثينات والأربعينات. في المجلد الثاني من سيرتها الذاتية «قوة الظروف» كتبت:

بعيداً عن معاناتي لكوني أنثى، على العكس، حصلت منذ أن كنت في الواحدة والعشرين من العمر على مزايا الجنسين. فبعد روايتي الناجحة الأولى «جاءت لتبقى»، تعامل معي المحيطين بي على أنني كاتبة، وكند في عالم الرجال، وامرأة أيضاً. كان هذا واضحاً بشكل خاص في أمريكا: في الحفلات كانت النساء يتجمعن معاً بينما كنت أتحدث مع الرجال، برغم ذلك تصرف الرجال معي بأدب أكثر مما يتصرفون به مع بعضهم البعض[66].

ومثل «كارولين غراغليا»، تعبر «ماري إيفانز» عن ذلك قائلة:

عندما ننظر إلى حياة «دو بوفوار» الماضية من الممكن مناقشة أنها تمتعت حقيقة بقدر لا بأس به من الحرية والاستقلالية: لقد تدربت على مهنة ممتازة، وعاشت براحة واضحة بعيداً عن أعراف المجتمع. كانت لها حياة شخصية مستقلة اختارتها في بداية حياتها. وبالتالي إذا قلنا أن «دو بوفوار» تنتمي إلى ماضي بعيد مختلف تماماً، كانت فيه النساء غير أحرار وعرضة للتحكم الذكوري، فإن ذلك يجعل حياتها وحياة نساء أخريات تبدو تافهة[67].

بالطبع لم يكن التمييز في أماكن العمل المشكلة التي قادت النساء إلى التوقف عن العمل خارج المنزل كما تقول «غراغليا»: «ما دفعنا إلى البقاء مع أطفالنا هو النفوذ العاطفي الذي مارسه أطفالنا علينا، ولأننا كنا نظن أن وجودنا في البيت هو لصالحهم. إن الحياة في المنزل من أجل العناية بهم كانت جيدة لنا أيضاً، كما اكتشفنا لاحقاً. والأهم من ذلك أننا كنا على ثقة من أن المجتمع احترمنا وآمن بأننا نقوم بمهام قيمة ـ ولا نتصرف كضحايا ـ لكوننا ربات بيوت طوال الوقت. لقد حطم دعاة حقوق المرأة تلك الثقة في قيمة المرأة، وذلك بإقناع الجيل الشاب من النساء والرجال أن المجتمع يحتقر دور المرأة في العمل المنزلي[68].

حدث الأمر نفسه مع «دانييل غريتندن» بعد أربعين عاماً: وهو الإدراك بأن العمل أصبح تافهاً وغير هام عند مجيء طفلها، وأن هناك تضحية صغيرة في رغبتها في التخلي عن عملها للاهتمام بطفلها. كتبت تقول: بما أننا نساء

عصريات فقد تعلمنا أن نتوقع أشياء كثيرة في حياتنا ـ ما عدا شيء واحد ـ وهكذا فإن القرار الأوحد والأهم الذي يغير الحياة، والذي ما زالت النساء يقمن به، والذي لسنا مهيآت له بشكل جيد هو الحصول على طفل. صحيح أن المسرحيات الكوميدية في هوليوود لا تزال تهيئ النساء لبعض تلك التغيرات في الحياة: «نتوقع فترة من الإزعاج تتبع ولادة الطفل مباشرة، ليالي بدون نوم، والإرضاع، والبكاء المستمر... إلى آخر ما هنالك». أما بالنسبة للمرأة العصرية التي شبّت على الاعتقاد بأهمية عملها، فإن الشيء الذي ليست مهيأة له تماماً هو «إلى أي مدى سوف يهيمن الطفل على فكر الأم». قيل للنساء لمدة 30 عاماً أو أكثر أنهن سيكن «أكثر سعادة وأكثر تحقيقاً لذاتهن كبشر» إذا تركن أطفالهن في رعاية مربيات وذهبن إلى العمل، وأن المرأة التي تقرر العودة إلى العمل بعد ولادة طفلها بستة أسابيع أو أشهر، تؤمن بصدق أنها سوف تحقق ذلك ـ في أغلب الأوقات تعود المرأة إلى العمل مباشرة بعد الولادة ـ ولكن، تقول «غريتندن» أنه إذا كانت المرأة مثلها (أي غريتندن)، وكثير من النساء كذلك، فإن ذلك لن يجعلهن سعيدات.

> إذ أنك حتى تحملي طفلك بين ذراعيك ـ الطفل الذي تعتقدين أنه يشبهك إلى حد كبير ـ ويدهشك شكل أذنيه وبريق عينيه اللتان تحدقان بك بدهشة وفضول، لا تستطيعين معرفة بماذا ستشعرين عندما تصبحين أماً. هذه المفاجأة هي أكبر سعادة في الأمومة وأكثر أسرارها غموضاً: فجأة لا تستطيعين التوقف عن التفكير بطفلك[69].

إن هذا الشعور شديد الانفعال إلى حد يجعل من الصعب على الحركة النسائية مواجهته. ولكن عندما يحصل ذلك، أي عندما تحصل النساء على أطفالهن أخيراً، هناك شيء آخر يجذبهن، شيء أقوى بكثير من بهجة العمل العابرة. إن البقاء في المنزل مع لأطفالهن، بالنسبة لنساء مثل «غريتندن و غراغليا» ليس بتضحية على الإطلاق. تدرك «غراغليا» «أن أكثر الأشياء ظلماً للنساء هو نجاح دعاة حقوق المرأة في إقناع المجتمع باعتبار ما تقوم به النساء، والذي هو في الحقيقة أكثر الأعمال عطاءً، تضحية.

مثل كثير من نساء جيلها، لم تستطع «غراغليا» ببساطة فهم نقد «بيتي فريدان» في كتابها «الغموض الأنثوي» عندما قرأته في عام 1965. لقد صعقت من «فظاظة الاستخفاف» بكل ما كانت «غراغليا» تؤمن به، ومن افتقارها الكامل لقدرتها على تخيل وبدء رؤية الإمكانيات في طريقة الحياة التي وجدت أنها توفر «حرية مطلقة ـ أعظم الحريات التي عرفتها ـ لخلق خطة كي أعيش لذاتي ولأسرتي، ولكي أدرك أهمية ذلك». كانت تجربتها تعارض الظلم الذي تم افتراضه. كتبت تقول: «لم تكن العناية بأطفالي مملة أو مضجرة أو موحشة. وعوضاً عن أن تكون كئيبة وموهنة اكتشفت أن سنوات حياتها في المنزل كأم كانت «تخلق سعادة عارمة كل يوم». حتى عندما كانت تقوم بالأعمال اليومية مثل «تنظيف جسمهم من الأعلى إلى الأسفل»، ووضعهم داخل معاطفهم الشتوية: «كان رد فعلي العادي هو كم هم رائعون. وكيف كان يظهر استمتاعهم بتلك النشاطات اليومية في أعينهم، وكم أنا محظوظة لحصولي على امتياز مشاركتهم تلك المغامرة المثيرة التي نخلقها من خلال نموهم اليومي. إن مشاهدتها «عمق إحساسهم» و «توسع اهتماماتهم»، وتمتعهم ودهشتهم بالحياة ـ أكثر مما شاهدته لدى أي شخص أكسبها «أكبر خبرة تعليمية» في حياتها.

لم تجد «غراغليا»، مثل «فريدان»، في كونها أماً وربة منزل تعتمد اقتصادياً على زوجها، أي شيء «مذل» أو «مزعج». على عكس ذلك، عندما توقفت عن ممارسة المحاماة كانت هناك منفعة غير متوقعة وهي أنها شعرت أنها أصبحت أنها محبوبة أكثر من ذي قبل. أدى إدراكها الجديد بأن زوجها يهتم بها «إلى حد إجهاد نفسه إلى أقصى حد كي يستطيع تأمين حياة جديدة لي ولأطفالي» إلى اتقاد شعورها بالأمان والرضا[70].

لكن ليست النساء فقط ـ مثل «غراغليا وغريتدن» ـ واللواتي يصفن أنفسهن بأنهن مناهضات للحركة النسائية يناقشن هذا الموضوع الآن. إن خط الفصل الخاطئ لحركة المساواة بين الجنسين التي قمت بوصفها في نهاية الفصل الثاني،

بين «المساواة» و «التحرر» يخلق مجموعات غريبة. إن المناقشة الرئيسية في هذا الكتاب هي أن نساء من أوساط سياسية مختلفة توحدن في قضية مشتركة ضد مساواة دعاة حقوق المرأة. وفقاً لتلك الصلة، فإنه من الصعب اكتشاف اختلاف كبير بين كتابات نساء مثل «غراغليا وغريتندن» وأخريات ما زلن يدّعين بأنهن من دعاة حقوق المرأة: يعتبر كتاب «جيرمين غرير»: «المرأة الكاملة» التماسا قوياً لاستعادة قيم المرأة للحياة العائلية والأمومة كما فعلت الكاتبات اللواتي تم ذكرهن. وأعتقد أنها بحق تنتمي إلى تلك المجموعة في موضوع الأمومة على الأقل.

عندما تفكر «غرير» في الماضي، في أيام أفضل قبل أيام المساواة للحركة النسائية تقول: «عندما كان يجب على العائلة أن تجتمع حول المائدة خلال وجبة على الأقل كل يوم، لم تكن وجبات الطعام الجاهزة معروفة في تلك الأيام، كانت تقع على ربة المنزل المسؤولية الكاملة للاهتمام بنوعية حياة الأسرة. كانت تظهر من سلطتها ومهارتها للتعبير عن حبها لعائلتها من خلال الجهد الذي تبذله في إعداد أطباق الطعام. لكنها تشعر بالأسف على أن «دور المرأة هذا قد اختفى الآن». لقد استجاب منطق الرأسمالية، بكل كفاءته العمياء، إلى مطالب النساء العاملات وذلك عن طريق الإعلانات عن الطعام الجاهز. يُنظر إلى الطعام المنزلي بازدراء في الإعلانات التلفزيونية. لم تعد النساء تطلبن قطع اللحم الصغيرة والعظام من اللحام لصنع المرق، ولم تعد تمزجن السكر والزبدة والبيض والطحين لصنع الكعكة. ولا يذهبن إلى السوق كل يوم لشراء الخضراوات الطازجة واللحوم. عوضاً عن ذلك، سُجنت حياتهن ضمن أخلاقيات العمل الذكورية. بتن يذهبن إلى المتاجر الكبيرة مرة في الأسبوع ويخترن أصناف مختلفة من الأطعمة الجاهزة التي يمكن حفظها في الثلاجة حين يحين الوقت لاستخدامها.

حملت نتيجة استبيان مجلة «الطعام الجيد» أخباراً سيئة إلى دعاة حقوق المرأة، كما تشير «غرير». فقد بينت تلك الاستبيانات أن أكثر من 90 % من النساء اللواتي أجبن على الاستبيان يحضّرن العشاء كل مساء لأزواجهن/شركائهن. لكن لماذا تعد

هذه الأخبار غير جيدة لدعاة حقوق المرأة؟ تقول «غرير» أنه من الضروري أن نفكر «ماذا يمكن أن نقوم به للنساء اللواتي يجدن الرضا في إعداد الطعام كل ليلة لأحبائهن؟ لا نعرف ما هي النسبة من الـ 90 % من النساء اللواتي كن يدافعن عن سيطرتهن على محيطهن العائلي». وتستطرد قائلة:

لا تنظر كل داعيات حقوق المرأة إلى المهارة التقليدية للنساء بازدراء، هناك البعض اللواتي يزرعن الخضار والفاكهة ويصنفن المخللات والفاكهة المحفوظة، بأمل أن يُقدر أحد ما أن عمل الأيدي أفضل من عمل الآلة.

كنت دائماً أستمتع بقراءة العامود الدائم الذي تكتبه «غرير» في الـ «ديلي تلغراف»، حيث تصف بحب تلك المهارات التقليدية وقيمتها: «هؤلاء هن دعاة حقوق المرأة في الحياة الحقيقية، الحافيات، ذوات البنية ذات الأوراك العريضة، والمرحات. إن إعادة توظيف خبرات النساء التقليدية وإعادة اعتبارهن وقيمتهن قضية خاسرة أخرى لدعاة حقوق المرأة».

لم تُقدر «غرير» أهمية الحياة المنزلية فقط، بل الأمومة أيضاً:

إن تجربة وقوع الأم في حب طفلها ليست عامة على الإطلاق، لكنها مخاطرة مهنية لأي امرأة تلد. معظم النساء اللواتي يجدن أنفسهن منغمسات في نوبات الأمومة العاطفية يندهشن من شدة السعادة التي تغمرهن ومن الألم العارم الذي ينتابهن عندما يعاني طفلهن من الألم أو المرض.

تقول «غرير» إن المجتمعات النسائية قبل حركة دعاة حقوق المرأة المطالبات بالمساواة، قد نجحن في الأمومة أكثر من النساء اليوم.

تاريخياً، حضنت المجتمعات وعززت الرباط بين الأم وطفلها. في قرى الهند وباكستان لا تزال الأم حديثة الولادة تبقى بعيداً عن أعين الغرباء، في مكان هادئ قرب وليدها، واثقة من حقيقة أن ولادة طفلها أدخلت السرور إلى كل المحيطين بها. ولإظهار منزلتها الجديدة واحترامها، تُلبس ثياباً جديدة وتعطى مجوهرات جديدة، وتدعى باسم جديد ويحتفى بها.

تحترم «غرير» حقيقة أن الفتيات في المجتمعات ما قبل الحركة النسائية «يتعلمن الأمومة منذ نعومة أظفارهن، عادة من العناية بإخوتهن وأخواتهن». مقابل ذلك، تنحدر في الغرب نوعية حياة المرأة بعد الولادة بشكل حاد لأنها مجبرة على القيام بعملها والعناية بطفلها في وقت واحد مع شعورها «بأن المستقبل بات بالنسبة لها القلق والشعور بالذنب والإرهاق».

تكتب «غرير»، وهي مدركة أنه من الممكن أن يكون لأوائل كتاباتها تأثيراً على تلك التغيرات: «ناقشت في كتابي «المرأة المخصية» أنه لا يجب التعامل مع الأمومة على أنها مهنة بديلة. أريد الآن أن أناقش أن الأمومة يجب أن يتم اعتبارها خيار مهني حقيقي...». وتكمل «غرير» مناقشتها قائلة» إن المكافأة الكبرى، وهي الحصول على أطفال، هي أكثر الأسرار كتماناً في العالم الغربي»[71].

هذه هي بعض أصوات النساء التي قامت ضد هيمنة وصف دعاة حقوق المرأة للحياة المنزلية والأمومة. إنهن يطالبن بأن تسمع آرائهن جنباً إلى جنب مع آراء دعاة حقوق المرأة الذين فازوا باحتكار السياسة العامة. يتساءل المرء عند قراءة تلك الأوصاف المختلفة عما إذا كان كتاب «ردم الهوة بين الجنسين» و «كيف تخدع المدارس الفتيات» والقيمين على الوثائق الحكومية في انكلترا وأمريكا قد فهموا الأمور بوضوح. لقد تحررت الكاتبات من دعاة حقوق المرأة من الكدح المنزلي، وأردن ذات الشيء للفتيات الأخريات أيضاً، لفتيات الطبقة العاملة، ولفتيات لهن آباء ذوي مهنة. لكن هل ما تتحرر منه الفتيات هو أمر سيء إلى هذا الحد، كما تدعي سيدات حقوق المرأة؟ ربما، يمكن أن نستنتج هنا، أن دعاة حقوق المرأة يبالغون في وضع البيض في الحلوى. ربما كان هنالك الشيء الكثير كي يقال لاسترداد النساء لقيم الحياة العائلية والأمومة. وربما يجب أن يعكس نظامنا التربوي تلك القيم عوضاً عن الحط من قيمتها واستبدالها بمطامح ذكورية.

كانت هذه المشكلة الأولى التي واجهتها مع جدول أعمال دعاة حقوق المرأة الذي يعطي الدعم والعون لسياسة الدولة. إن المشكلة الثانية والثالثة، أعني إلقاء الضوء على المبالغة في تقدير عالم الرجال، وإضعاف الاتكال المتبادل بين الرجال والنساء، يجري التركيز عليهما في الفصل التالي.